روايات عبير



آن ويل

بدر الأندلس

١١٩

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 119

بدر الأندلس

السفر ولقاء الآخرين... الأفق وما يخبئه الأفق وراء المسافة... لا شيء من هذا كان يخيفها، فهي قادرة على مواجهة كل أنواع الأخطار الممكنة ولو انها فتاة جميلة ولم تتجاوز عمر الربيع، غير ان شيئاً في ذاكرتها حملها أخيراً الى اسبانيا- الاندلس وكان القدر بانتظارها فالتقت صوفيا بكارلوس مرة ثانية وتعرفت معه ومن خلاله الى البلاد التي ترك العرب بصماتهم على كل خلية منها، الا ان القدر نفسه شاء ان تعود صوفيا بسرعة لتشييع جدها في بريطانيا، وهو أعز انسان لديها.

بعد موته قرر الهجرة الى نيوزيلندا مع عمتها روزا... الى ان سمعت قرعاً على الباب...

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية
LORD OF THE SIERRAS

١ - الحلم والواقع

بلغت صوفيا لينفوود السابعة عشرة من عمرها، في الصيف بعدما انتهت من اكمال دراستها الثانوية وما زالت بعد غير قادرة على اتخاذ قرار بالنسبة الى مستقبلها. وفي هذا الصيف بالذات تلقت صوفيا ما ادهشها من رجل غريب في مكتبة برامفيليد حيث تباع الكتب القديمة.

وهذا ما حدث بعدما القت نظرة الى ساعة يدها مدركة انها امضت حوالى ساعة بين الكتب، مع انها دخلت المكتبة لبضع دقائق فقط.

كان ذلك يوم الاثنين وكان جدها قد دعا رجلا اميركياً، هو امين المكتبة، الى الغداء والرجل وصل على بغتة في صباح اليوم نفسه.

فبقايا الدجاج من طعام امس لم تكن كافية لاطعام الضيف، لذلك ارسل صوفيا لشراء ضلع خروف من الجزار الذي يملك دكاناً صغيرة في الحيّ المجاور. والآن عليها الاسراع في قيادة دراجتها كي تصل الى المنزل قبل وصول الضيف.

وضعت الكتاب المثير مكانه وتناولت سلتها الممتلئة اغراضاً شتى وسارت بين الممرات العتيقة باتجاه السلالم الى الطابق الارضي ومن ثم الى الخارج. وبينما كانت تبحث عن طريق مختصرة في قبو المكتبة ارتطمت برجل شاب طويل القامة، اطول بكثير مما هي عليه صوفيا. كانت ردة فعله سريعة اذ أمسكها بكتفيها وتمكن من تجميدها نحو صدره ومنعها من السقوط. فوجئت بانزعاج.

في انزعاج ودهشة وغيظ لفظت بتلعثم كلمات الاعتذار. فالتقى نظرها بعينيه الرماديتين الساخرتين وسط وجهه الأسمر الذي يعلوه شعر اسود كثيف وبدلا من ان يفلت قبضته ويرجع الى الوراء لتتمكن من المرور، اخفض الرجل الغريب رأسه وعانقها.

كان عناقاً قصيراً وغامضاً. لكن صوفيا باتت مضطربة. تلعثمت من شدة الذعر وظلت بضعة ثوان كأنها مشلولة. وفي الوقت الذي بدأ فيه الرجل الغريب بفتح فمه، نجحت في استعادة كامل وعيها، وافلتت منه وولت هاربة.

وظلّ قلبها ينبض بسرعة جنونية عندما اطلّت الى مطبخ المنزل. لكن السيدة ستيل لشدة انهماكها بتحضير الغداء لم تلاحظ اضطراب ابنة اخيها وتوترها.

في كل حال، هل غريب ان تحمّر صوفيا وتلهث بعد قيادة دراجتها

صعوداً حتى قمة التلة التي تؤدي بها الى المنزل؟

ولدت صوفيا في تاييبنغ، في ماليا الشمالية، عندما اعلنت حالة الطوارىء في بداية الخمسينات. بعد خمسة اشهر على ولادتها قتل والدها الجندي وزوجته في كمين وضعه المقاومون. . .

ولحسن حظها كان لها جد وعمة للاهتمام بها. ولما كانت صوفيا تسمع احياناً من رفيقاتها في المدرسة عن تذمرهم تجاه اهلهم. كانت تتساءل ما اذا كانت اكثر سعادة عند جدها وعمتها روزا مما لو انها تعيش مع والديها اذا مازالا على قيد الحياة.

وحتى سن التقاعد كان جدها محامياً وفي الوقت نفسه كان يلم الماماً كبيراً. بمطالعة الكتب النادرة. وكان فرحاً للغاية لاكتشافه أن حفيدته تولي هي ايضا الاهتمام نفسه.

اما بالنسبة الى روزا ستيل، عمة صوفيا، فكانت مطرزة من الدرجة الاولى. ترملت وهي في العشرين من عمرها ولم تتزوج مرّة ثانية. كرّست حياتها لتربية ابنة اخيها وابداع تحف فنية رائعة في عالم التطريز، وخاصة للكنائس والمباني العامة.

وكانت روزا تسمع دائماً من صديقاتها المتزوجات عن الصعوبات التي يواجهنها مع بناتهن. وتستغرب عدم وجود اي مشكلة تواجهها هي مع ابنة اخيها صوفيا.

ومنذ اليوم الذي توجهت فيه روزا مع والدها الى ساوثها متون لاستلام الطفلة اليتيمة من يد ممرضة عسكرية، لم تكف لحظة ان تكون الشعاع الوحيد في وجودهما. هذه الطفلة الممتلئة الهادئة

اصبحت فتاة صغيرة مرحة وحنونة، تقضي ساعات طويلة تنظر الى البواخر من المنظار الذي اشتراه جدها خصيصاً لها... كما كانت تجمع الاصداف والحجارة على الشاطىء، وتحيك الملابس للعبتها من فضلات القماش والخيطان التي تحفظها عمتها لها.

ومع الايام، كبرت الفتاة واصبحت تحب مطالعة الكتب مثل جدها. في منزل جدها كان ساعي البريد يصل باكرا. ويتم فطور الصباح في صمت غريب. وبينما كانت روزا تقرأ الصحيفة المحلية، كان السيد لينغوود وحفيدته منصبين على قراءة المجلات النفيسة المتعلقة بهواة الكتب او الفهارس الرائعة التي ينشرها امناء المكاتب المختصين بالمنشورات القديمة.

واظهرت صوفيا سهولة كبيرة داخل المنزل. لكن ذلك لم يكن وارداً في المدرسة حيث كانت دفاترها وكتبها مليئة بعلامات التعجب الجافية وعن اشارات الى سوء الطبع: مهملة! عديمة! النظام! نقص في روح التعاون! عدم اجتهاد! شاردة وحالمة بصورة مستمرة!

قال لها مرّة جدها بلهجة متسامحة:

- يا الهي، يا صوفيا، انت دائما في القمر، حسب ما ارى!

- انا متأسفة، ياجدي. احاول الاجتهاد، ارجوك ان تصدقني. لكن التاريخ مادة مملة مع الآنسة سميث. بالنسبة اليها بوثويل شخصية كريهة. ومن جهتي انا، لا يمكنني ان امتنع عن اعتباره رجلا رائعا!

نظر اليها جدها بحنان وقال:

- معلمتك يا صبيتي انسانة واقعية، بينما انت فتاة خيالية. لكن... الوقت ربما يحسن الامور...

لكن الوقت لم يفعل شيئاً بصوفيا من هذه الناحية. فمن سن الثانية عشرة الى سن السادسة عشرة طرأت على وجود صوفيا سلسلة متوالية من الولع والانجذاب الغريب لابطال التاريخ الراحلين وبينما كانت رفيقاتها يضعن على جدران غرفهن صور الفنانين المشهورين، كان خيال صوفيا المجنّح مرتكزاً على «الكابتن الكبير» غونزافيه دي كوردو، وعن نابوليون وهيتلر وهنيبعل ولورد بايرون الشرير.

لكن بعد هذا العناق الخاطف في قبو مكتبة برافيلد، تخلت صوفيا اخيراً عن شخصياتها الاسطورية العزيزة على قلبها، لتبدأ بالحلم ببطل من لحم ودم. ولمدة اسابيع عديدة، مباشرة بعد هذا اللقاء السريع، ظلت تحلم وتأمل في رؤيته من جديد. لم تعد تنسى تلميع احذيتها وغسل شعرها مرتين في الاسبوع. كما بدأت تهتم بتحسين اظافرها واختيار الملابس الانيقة وخفّ تدريجاً اهتمامها بالكتب والمطالعة.

ولا شك ان هذا الرجل الطويل القامة، ذا العينين الرماديتين الساحرتين، هو من اصل اسباني لكون شعره اسود وبشرته سمراء لوّحتها الشمس وكانت صوفيا اكيدة ان هذا الرجل ليس من العامة، اسبانياً كان أم لا. ولا شك انه ينتمي الى عائلة عريقة. من المستحيل ان تتصوره يرتدي سترة بيضاء منشاة ويضع على ذراعه فوطة، وينحني امام الزبائن ليتلقى البقشيش! هل هو اذن مدير فندق؟ رجل اعمال؟ لا. كانت بشرته سمراء من شدة تعرّضها للشمس وذراعاه قويتين. هاتان الذراعان اللتان ضمتاها للحظة

قصيرة.

حلّ الصيف وبدأ الخريف ولم تره. وبات عليها ان تقبل بالامر الواقع: هذا الرجل سائح مرّ مرور الكرام.

دخلت صوفيا مدرسة السكريتاريا ولم تعد تقول لنفسها بحماس كلما غادرت المنزل: «ربما سألتقي به اليوم».

لكن ظلّ حسها يقول لها بأنه سيأتي يوم ويلتقيا من جديد. ولا شك ان هذا الرجل الغريب سيتذكر لقاءهما الاول العابر وسيقع في غرامها.

اهداها جدها كتاب «حكايات الحمراء» للكاتب المشهور

«حكايات الحمراء» للكاتب المشهور وشنطن ايرفينغ الذي نشر عام ١٨٣٢، كما اهدتها عمتها روزا دثارا للسهرة مصنوعا من قماش المخمل الاخضر، وطرزت قبعته بحجارة اللؤلؤ. وفي اليوم التالي كان عليها ان تجتاز بحر المانش لاستلام وظيفتها في بلاد الاندلس.

فرحت صوفيا بالهديتين وارتدت الدثار وراحت تدور حوله في الصالون المتواضع كعارضة أزياء. لكن سرعان ما سئمت هذا الدور ورمت القبعة الى الوراء وراحت تضحك وتقول:

ـ اليس هذا رائعاً يا جدّي؟

وبحماس وورع لمست التطريز الفاخر تماماً، كما لمست منذ قليل غلاف الكتاب القديم.

قبّلت عمتها وقالت:

ـ انت كنز لا تقدر قيمته. وشكراً على هذا الابداع الفني الذي اخذ من وقتك قسطاً كبيراً.

ـ انا دائماً سعيدة عندما اخيط لك الاشياء الجميلة، يا صوفيا.

ـ وتسمين ذلك «خياطة»!

كانت تعرف تماماً ان عمتها فنانة من نوعها. تقنيتها الكاملة وموهبتها المدهشة للرسم يجعلان منها انسانة مشهورة مثلما كانت عليه ريبيكا كرومتون قبل الحرب.

واسترخت صوفيا على حافة النافذة تحدق بجدها الجالس على كرسي هزاز، يتأمل حفيدته التي كانت تبدو، بمعطفها الغريب فوق قامتها المشوقه، مثل عذراء من عصر النهضة.

ـ لن ازور الحمراء في النهار وذلك بسبب كثافة السّياح. اني افضل ان ازورها في المساء، تحت ضوء القمر، مغلّفة بدثاري. وسألتقي بامير اسباني، يتوسل اليّ راكعاً ان انقاسم قصره الضائع مع قلب سلسلة جبال السييرّا... لكنه سيغيّر حتماً رأيه عندما يراني في وضح النهار، في سروال الجينز.

... والعجوز ما زال ينظر اليها حالماً، ويتساءل ما اذا كان سيظل حيّاً يرزق لدى عودتها، بعد ستة اشهر. رأى وجه صوفيا يتغير شيئاً فشيئاً ليأخذ تعبيراً بعيداً لم يألف ان رآه من قبل.

كانت الفتاة تتذكر اللقاء العابر الغريب الذي حصل قبل اربع سنوات ونصف، في مكتبة الحيّ عندما عانقها الرجل الغريب. ولم تتمكن ابدا ان تنساه كلياً.

وخلال اشهر طويلة كانت هذه الذكرى تنمي احلامها وخاصة احلام اليقظة. كل مساء كانت تتمدد في العتمة بعد ما تطفىء الاضواء وتقص على نفسها حلقة جديدة من مسلسل قصتها

العاطفية. الحوادث تدور في اماكن وعصور مختلفة. في القطب الشمالي، في فيينا الرومنطيقية او في جزر الكناري... فقط الشخصيات لا تتغير. وهي دائماً البطلة وهو البطل. لم تطلق عليه اسماً، فقط عندما كانت تعطيه دور أمير اسباني في عهد الملكة ايزابيل الاولى. حينذاك كانت تطلق عليه اسم: حاكم السييرا. يخطفها الى قصره المبني على قمة جبل مرتفع. وكم من مرّة تخيّلت عملية الخطف ورحلة الخيل التي تليها ومحاولة الهرب، واخيراً المشهد في القصر المضاء بالشموع حيث كانت هادئة تأكل عشاء لذيذاً بأوان فضية مذهبة، وتخاف ان يتركها الخدم وحيدة مع خاطفها! لكن في غالب الاحيان كانت تغوص في نوم عميق قبل هذه اللحظة الحاسمة...

وبعد سنة، جاء فرنسي ليحلّ مكان حاكم السييرا...

التقت صوفيا بالفرنسي غي في جزيرة اوليرون حيث كانت تقضي الصيف عند صاحب فندق من بوردو يملك منزلا صيفيا صغيراً في الجزيرة. جاءت لتهتم بالاولاد وتحدثهم باللغة الانكليزية. وغي كان طالباً ويعمل خلال العطلة الصيفية في مخيّم قريب من المنزل. وخلال الاستراحة من العمل كانا يلتقيان ويتناولان وجبات الطعام في المطاعم حيث كانت تستمتع بأكل الاسماك وفاكهة البحر. ومن هذه الرفقة التي دامت شهرين، تعلمت صوفيا اللغة الفرنسية واصبحت تتقنها بطلاقة ظاهرة.

وكانت علاقتها تقتصر على العناق الناعم في الممرات الهادئة وفوق الصخور القريبة من الشاطىء. لكنها كانت ترفض مرافقته الى التلال الرملية. وكان غي يصرّ عليها قائلا:

ـ لماذا ترفضين، يا صوفيا؟ سنكون هناك في هدوء وبعيداً عن المارة.

اجابته ضاحكة:

ـ ولهذا السبب لا اريد الذهاب.

كانت تحبه كصديق حميم، خاصة عندما يلامس شعرها ويهمس في اذنيها كلمات الحب بالفرنسية. لكن لشدة فرحها بوجودها في الغربة لأول مرّة، كانت ترفض غريزياً كل ما يمكنه ان يسيء الى حريتها.

لم تكن تتمتع بعواطف خاصة او طموحات معينه. كانت تحب ان تتزوج وتنجب الاولاد وتلعب دور الزوجة والام معاً. ولن تشعر بأن حياتها قد بدأت فعلاً الّا يوم تقع في غرام احد ما وبانتظار ذلك، تريد الاستمتاع بحريتها لتسافر وترى اقصى ما يمكنها ان تراه.

من يدري ما يجيء لها المستقبل؟ عمتها روزا لم تعرف سوى حب عابر خطفه الموت. وامها؟ ماذا وهبها الزواج؟ رحلة الى الشرق الاقصى، وطفلة وموت سريع. بامكان صوفيا ان تجد نفسها يوماً متزوجة من رجل بوليفي يصطحبها الى بلاده، او ببحّار غائب عن المنزل في غالب الاوقات. وربما اضطرت الى السكن في قرية نائية حيث لا يمكنها ان تجد وسيلة للخروج.

اذن لماذا لا تستفيد من عزوبيتها لتزور الاماكن التي طالما حلمت بها، القصور الرائعة التابعة للويس الثاني في بافيير، وقبر لورد بولويل في الدانمارك، والمروج في جبال الألب وحقول الثلج الباهرة التي وصفها الكاتب ارنولد لون في احد كتبه على انها: «جبال الشباب».

كان السيد لينغوود وابنته روزا على حق في ألاّ يقلقا على دراسة صوفيا، ذلك لأن الفتاة تتمتع بصفات اكثر افادة من الشهادات للحياة اليدوية التي تحب ان تعيشها. انها فتاة جادة ورصينة وعندها موهبة جمع الاصدقاء في كل مكان. لا تبقى ابدا فترة طويلة من دون عمل. وفي كل بلد تزوره، تجد دائماً شاباً تصادفه ويساعدها على اتقان لغة البلاد...

بعد غي، تعرفت على آلان في سويسرا الذي علمّها رياضة التزلج واسرار القواعد الالمانية. وبعده جاء باولو ذو الشعر المجعّد الذي لقنها قليلا من اللغة الايطالية. ومن ايطاليا ذهبت الى هولندا. وبما ان الجميع يتكلمون اللغة الانكليزية اختارت ان تتعلم اللغة الاسبانية بجدية.

وبعد الاحتفال الحادي والعشرين ذهبت صوفيا الى
محطة القطارات للقاء صديقتها كاتي ديلهام. وستسافران معاً الى كوستا برافا حيث وجدت كاتي لنفسها عملا مؤقتاً في مكتب عقاري يديره رجل انكليزي. ثم تكمل صوفيا طريقها نحو الجنوب.

قالت لها كاتي في اليوم التالي، بينما كانتا تدخلان السيارة الى الطائرة الشراعية التي تقطع بحر المانش:

ـ انت فتاة محظوظة لانك تملكين سيارة. فاذا سئمت من مواصلة عملك في مكان ما، بامكانك ان ترحلي وتبحثي عن عمل آخر في مكان آخر. اما انا، فسأضطر للبقاء حيث انا، طيلة الموسم، على الاقل.

ـ جدي اهداني هذه السيارة.

انها سيارة صغيرة مستعملة، وضعت صوفيا في داخلها خيمة

وفراشاً يملأ بالهواء المضغوط وامتعة النوم، وكل الوسائل التي تؤمن النوم في المخيم، لأن ذلك يعود اليها اوفر من النزول في الفنادق.

قالت صوفيا:

ـ لو لم يهدني جدي هذه السيارة. لكنت بعت بعضاً من كتبي الثمينة القديمة واشتريت لنفسي سيارة.

كانت كاتي تحسد صوفيا على حبها للمطالعة وجمع الكتب القديمة النادرة، اذ بامكانها ان تبيع جزءا منها عند الحاجة. وكانت تحسدها ايضا على حياتها العاطفية الخالية من العقد والمشاكل. كانت كاتي كلما التقت بشاب اعجبها تعتقد انها وقعت في غرامه. وهذه المغامرات العاطفية محكومة بالفشل الذريع. اما بالنسبة الى صوفيا فكانت تسمع كلمات الغزل من افواه شباب، لكنها لم تكن تنتظر بقلق رسالة او مكالمة هاتفية. وفي كل حال، تتجاوز صوفيا نقطة اللاعودة مع اي رجل عرفته، كما هو الحال مع صديقتها التي كانت تندم على ما تفعله بمرارة.

ومرّة سألتها كاتي:

ـ اذا هدد ويليام بتركك لو استمرّيت في رفضك له. اعني اذا لم تمارسي معه المغامرة العاطفية، ماذا تفعلين؟

اجابت صوفيا من دون اي تردد:

ـ هذا سهل جدا، اتركه. انا لست واقعة في حبه. وحتى اذا كنت احبه، لن استسلم لمثل هذا التهديد الاعتيادي.

ـ يبدو انك لا تعانين اي مشكلة مع اصدقائك الرجال. لكن كيف يقبلون ان يتصرفوا معك مثل النسّاك؟

ـ مثل النساك... عاجلا ام آجلا سيحاولون حظهم. ويكفي

ان اقول لهم كلا بحزم. . . لكن احياناً يرفضون ان يفهموا. . .

ـ معظم البنات يقلن نعم.

ـ لست اكيدة من ذلك. وفي كل حال، انا لست مضطرة ان افعل مثل الجميع؟ افضّل الرجال الذين يهتمون بي لغايات اخرى.

راحت الطائرة الشراعية تزوبع في اغبرار من الزبد. وهدير المحرك طغى على جميع الاصوات فسكتت كاتي نادمة لأنها لم تسمع نصيحة صوفيا.

وفي كاليه، بعد ما غادرتا الجمارك، قالت كاتي:

ـ اتساءل كيف هم الرجال الاسبان.

كان صوتها مليئاً بالمرارة. أشفقت صوفيا عليها قائلة في اعماقها: يا لكاتي المسكينة. لم تعد قادرة على اصدار حكم معين. تتأرجح بين رجل سكير ورجل متزوج! بانتظار رجل آخر. . .

اجابت صوفيا:

ـ لم يسبق ان تعرفت عليهم، ما عدا خدام المقهى بالطبع. هل تتذكرين الخادم في مطعم امبريال الذي جعل ساندرا تغضب حتى النفور؟

ـ ستتزوج ساندرا في الشهر المقبل. التقيتها صدفة الاسبوع الماضي. تحمل في اصبعها خاتماً من الياقوت. لا شك ان خطيبها رجل ثري انه. . .

لم تعد صوفيا تصغي اليها. للمرّة الثانية في خلال ٢٤ ساعة كانت مخيلتها تأخذها الى الرجل الغريب، ذي الشعر الاسود الكاحل والعينين الرماديتين. ربما هو السبب اللاواعي في حمايتها من السقوط في الاخطاء التي ارتكبتها كاتي. ذلك لأنها ما تزال تتذكره منذ

العناق الاول. صحيح انها لم تعد تحلم به، لكن لقاءهما السريع عند بائع الكتب جعلها تفكر به كرجل حياتها ولا احد غيره.

ظلّ الطقس جيلا طيلة الرحلة كلها. دخلت صوفيا الحدود الاسبانية وبشرتها سمراء من شدة تعرضها لأشعة الشمس. بعد شتاء قارس امضته في سويسرا في مركز التزلج، فهي الآن في المتوسط مستعدة للاستفادة من البحر والشمس وكل معطيات الريف الاسباني.

وقبل ان تنفصل الفتاتان، كان عليهما تمضية ليلة في بارشلونا عند اصدقاء والد كاتي. وآل هيلينغتون يسكنون في شقة فاخرة وسط المدينة. ولما اوقفت صوفيا سيارتها في مرآب البناية، اطلقت زفرة ارتياح، بعد السير البطيء داخل المدينة المكتظة بالسيارات والناس.

لو نزلتا في فندق صغير، لأمضت صوفيا السهرة في القراءة، بعد نزهة قصيرة في الهواء الطلق لتنشط قدميها. لكن هنا، ليس لها الخيار. . . كان آل هلينغتون مدعوين الى حفل استقبال وأصرّوا على اصطحاب الفتاتين معهما.

قالت لهما السيدة هلينغتون:

ـ لن تبدأ الحفلة قبل الساعة التاسعة. وامامكما الوقت لزيارة المزيّن سآخذ لكما موعداً وستقوم الخادمة بكيّ ملابسكما للسهرة. الاسبانيات نساء انيقات ويعتنين بشكلهن الخارجي وأناقتهن بشكل دائم.

لكن صوفيا، عكس كاتي، رفضت بالحاح الذهاب الى المزين لانها تكره ذلك كثيراً. في كلّ حال كانت قد غسلت شعرها في

الصباح وربطته بشريطة زرقاء. يكفي ان تسرّحـه جيداً كي تعيد اليـه رونقه.

ثم اضافت تقول:

ـ افضـل ان استريح، ربما انـام قليلا فـاستعيد نشـاطي وحيويتي.

قالت ربة المنزل عن عدم رضى:

ـ حسناً. في كل حال، ستقوم ماريا بتشذيب اظافرك وطلائها. الاسبانيات يعتنين بايديهن بصورة خاصة.

اخيراً، قررت صوفيا، لأرضاء آل هلينغتون، ان ترفع شعرها كعكة فوق رأسهـا، وتشكله بمشط قديم من الخزف المزّين بحبات اللؤلؤ. اهداها اياه ويليام لأنه يحب ان ترفع شعرها كعكة.

عندما رأتها السيدة هلينغتون تدخل الى الصالون مرتدية الدثار المخملي الاخضر قالت باستغراب وفخر:

ـ بالكاد عرفت انك صوفيا، يا ابنتي العزيزة!

وتحت الدثار كانت صوفيا ترتدي فستاناً ضيقاً طويلا وبسيطاً جداً، من قماش الموسلين العاجي اللون. بينما ارتدت كاتي طقماً مؤلفاً من سروال وسترة مصنوعين من الحرير الاحمر الغامق. اما المنزل فكانت ترتدي فستاناً من الكريب الأخضر الفاتح وتهتز تحت الماس والزمرد.

ـ ينقصك بروشاً، يا كاتي. سأعيرك واحداً من عندي.

توجهت بها الى غرفة النوم وبقيت صوفيا وحدها مع السيد هلينغتون الذي قال:

ـ ستجدين صعوبة كي تعتادي على اوقات الطعام هنا. نتناول

الغداء في الثانية والعشاء في العاشرة. وبعد الغداء نأخذ القيلولة. في الصيف لا يمكن العمل في الساعات الحارة. هل تخشين الحرّ، يا آنسة؟

ـ ليس بالتأكيد. انا معتادة على البلدان الحارة.

بقيا يثرثران الى حين عودة كاتي والسيدة هلينغتون التي لم تكتف باعارتها البروش بل نصحتها بوضع زوجي اقراط واسوار من ذهب. ولحسن حظ صوفيا، لم تصر عليها المرأة ان تعيرها شيئاً من مجوهراتها، كونها رفضت الذهاب الى المزّين.

جلست صوفيا قرب السائق في سيارة الليموزين السوداء اللماعة، بينما جلس الباقون في المقعد الخلفي.

كانت حفلة الاستقبال في شقة كبيرة وفاخرة. وفي المدخل المزّين بالتحف والسجاد الثمين، توافد الخدم لمساعدتهم على خلع معاطفهم وكان أصحاب المنزل من الاميركيين الاثرياء واصحاب النفوذ. كرهتهم صوفيا منذ النظرة الاولى، ذلك لأن السيدة كيتباكر كانت ترمقها بنظرات غريبة تعني بها انها لم تعجب ببساطة فستان صوفيا وغياب المجوهرات عنها.

قالت صوفيا وهي تتبع السيدة هلينغتون وسط الحضور الكثيف:

ـ يا الهي. كأننا في قصر الملوك!

ومما لا شك فيه ان العائلتين ينتميان الى وسط ارستقراطي حيث الغنى والترف وحب الظهور اشياء اعتيادية. وصوفيا التي تضع غنى العقل فوق كل شيء كانت تفضل مثلا الليلك البرّي العطر على الورد الثمين الذي غاب عطره.

وكان معظم المدعوين من الانكليز والاميركيين. اما الاسبانيون

القلائل فكانوا يتكلمون اللغة الانكليزية بطلاقة. فبدا اذن من المستحيل على صوفيا ان تمتحن معلوماتها اللغوية المتنوّعة. وبعد ساعة من الثرثرة الخفيفة والضجة والدخان، شعرت صوفيا بألم خفيف في رأسها.

كانت تحتسي كأسها ببطء وتصغي بأذنين شاردتين، عندما لمحت فجأة على بعد امتار قليلة رجلا طويلا. . . فاشتبكت نظراتها بنظراته.

انتفضت الفتاة وراح قلبها ينبض بسرعة قوية. انه هو. . . حاكم السييرّا. . .

بعد ثوان قليلة ابتسم لها تلك الابتسامة الساحرة التي مانسيتها ابداً. فردت عليه بابتسامة فرحة. لكن كان عليها في الوقت نفسه ان ترد على سؤال طرحه عليها رجل كان يجلس قربها. ولما نظرت من جديد باتجاهه كان قد اختفى.

وتساءلت صوفيا ما اذا كانت تحلم. لا. لا يمكنها ان تخترع هذا الوجه النحيل الاسمر المضاء بعينين رماديتين غريبتين. وهذه الفكرة وحدها كافية ان ترجفها.

امضت الدقائق التالية في زوبعة من الانفعالات المتناقضه: فرح برؤية بدء المغامرة الكبرى في حياتها. خوف من عدم رؤيته مرة اخرى وخوف من ان يكون متزوجاً. . . او مخطوباً. . . اختفى وبدأ املها يخيب، الى ان شعرت بيد تلمس كتفها. فالتفتت ورأته. قال:

ـ مساء الخير. انها مفاجأة حلوة ان اراك هنا. لن اسألك كيف حالك، لأنه كما تبدين، انت على احسن ما يرام. انك المرأة الوحيدة هنا التي لم تزين نفسها لتلفت الانتباه.

راحت صوفيا تضحك وتلألأت عيناها الجوزيتين ولفها الفرح. فمدّ لها يده. وفوجئت بنظراته تحدق بيدها اليسرى الخالية من أي خاتم.

ـ كيف بامكانك ان تتحملي هذه الضجة؟ تعالي لنتعشى معاً، اعرف مطعماً قرب المرفأ حيث بامكاننا ان نتحدث ونسمع بعضنا.

ـ اقتراحك يعجبني، لكني جئت الى هنا مع آل هلينغتون ومن الصعب ان. . .

ـ لن يعارضوا على مجيئك معك. سأشرح لهم الامر.

كانت عيناه تلمعان سخرية. ثم اضاف ضاحكا:

ـ قدمي لي السيدة هلينغتون. . . وفي حال نسيت اسمي، ادعى كارلوس ولسينغهام.

كادت صوفيا ان تعطي اسمها لكنها غيّرت رأيها. كيف ستتدبر امرها؟

لم تكن السيدة هلينغتون بعيدة عنها. كانت تثرثر مع امرأة اسبانية قصيرة وممتلئة. رفعت حاجبها لدى رؤية صوفيا برفقة رجل وسيم.

ـ هل بامكاني ان اقدم لك كارلوس ولسينغهام؟

ـ مساء الخير، يا سيد.

انحنى كارلوس وطبع قبلة على اليد المليئة بالخواتم. وبعدها قدمت السيدة هلينغتون صوفيا وكارلوس الى السيدة روث سألها كارلوس:

ـ أمل ان تسمحي لي ان اصطحب الآنسة لينغوود الى العشاء خارجاً.

حبست صوفيا ابتسامتها وهي تسمعه يذكر اسمها بسهولة، هذا الاسم الذي كان يجهله منذ لحظة. ثم اضافت قائلة:

- غداً، سأغادر برشلونة. وليس امامنا الآ هذا المساء لنجدد صداقتنا.

- طبعاً. . . طبعاً. . . الى الغد يا عزيزتي. لا تتأخري في العودة. ولا تنسي ان امامك رحلة طويلة.

وبينما كانا بانتظار احضار معطفيهما عاد يقول بلهجة ساخرة:

- لنرَ الآن، اين التقينا؟ في دافوس؟ في سان تروبيز؟ في بروكسيل؟.

- لقاؤنا بعيد جدا. . . استغربت ان تكون تتذكره.

- كيف انسى عينيك الجميلتين؟ آه، هذا معطفك.

حمل الدثار من يد الخادم ووضعه على كتفي صوفيا. ولما وصلا الى الطابق الارضي، ناول الحارس محفظة مفاتيحه وقال لها:

- علينا ان ننتظر عدة دقائق. الله وحده يعرف اين تمكنت من ايقاف سيارتي. . . اذن، انت مارّة مرور الكرام، مثلي؟ اين تذهبين غداً؟ هل انت عائدة الى انكلترا؟

- كلا. ذاهبة نحو الجنوب، الى بلاد الاندلس.

- صحيح! وانا كذلك. ربما نلتقي هناك.

ابتسمت وقالت:

- ربما.

لو انها مع اي انسان آخر، لبقيت صوفيا متحفظة. وفي الاوقات العادية، لما قبلت بتاتاً ان تغادر السهرة على هذا النحو.

توقفت سيارة فاخرة مكشوفة امامهما. وبعد ان اعطى الحارس بقشيشاً، ساعد صوفيا على الصعود في المقعد الامامي. ثم دخل بدوره امام المقود. وبعد قليل قالت صوفيا:

- سيارة فرنسية، واسم اوله اسباني وثانيه انكليزي. انت كما يقال مواطن عالمي!

كان يقود السيارة بهدوء وسهولة يحسد عليها. فبالنسبة الى صوفيا، هذا دليل نضج وثقة. قال شارحاً:

- امي اسبانية. ارسلتها عائلتها خلال الحرب الاهلية الى انكلترا. وهناك تزوجت من رجل انكليزي. لكن والدي قتل في اواخر الحرب العالمية. ولما دخلت الجامعة عادت والدتي الى اسبانيا وتزوجت من جديد. وهكذا كنت اتنقل بين جامعتي الانكليزية ومنزل والدتي الاسباني. عالمان مختلفان كلياً عن بعضهما. وانت، يا انسة اي خليط اعطاك هذا الجمال الغريب، النادر؟

- حسب معرفتي، انا انكليزية مئة بالمئة. لكني ولدت في الشرق الاقصى واسافر كثيراً في السنوات الاخيرة. لكن هذه هي المرّة الاولى التي ازور فيها اسبانيا.

- آمل ان يكون لك في هذا البلد ذكريات جميلة.

وبينما كانت صوفيا تتأمل ملامح وجه رفيقها كانت تقول في داخلها بأن هذه السهرة ستكون رائعة ولن تنساها مدى الحياة. . .

وبعد ما اجتازت السيارة الشوارع الفرعية للحي القوطي، وصلت الى الطريق الساحلية.

فقال كارلوس مشيراً الى السفن الراسية على طول الرصيف البحري المضاء:

ـ هل ترين البواخر الليلية المتجهة الى الباليار؟ ستصل في الغد عند شروق الشمس. وهذه الباخرة هناك تقليد لسفينة «سانتا ماريا» العائدة الى القرن السادس عشر.

ـ اي الباخرة التي كان عليها كريستوف كولومبوس عندما اكتشف امريكا؟

ـ تماماً.

المطعم كان نظيفا وعادياً. داخله خليط من الحرفيين والعمال. فوجئت صوفيا برؤية كارلوس يحيي الجميع. كانت العيون السوداء تحدق بها بفضول وتهمس بكلمات الاطراء والاعجاب.

ولما جلسا امام الطاولة قال لها كارلوس.

ـ كلمة «غواپا»، تعني حلوة او جميلة. وتسمعينها دائماً في اسبانيا. اما اذا وجهت اليك، فتعني بأنك رائعة.

كادت صوفيا ان تقول له بأن اتقانها الاسبانية شرط اساسي لوظيفتها المنتظرة. لكن الخادم اقترب فاكتفت بالابتسام.

ـ وبما انك تأتين الى اسبانيا للمرّة الاولى، عليك ان تتذوقي «البايلا». انها وجبتنا الوطنية. في المطاعم المخصصة للسّياح تكون عادية في الاجمال. لكن هنا، انها رائعة. انت جائعة، اليس كذلك؟

ـ جداً. هل تقصد هذا المطعم دائماً؟ يبدو انك تعرف الجميع؟

ـ لا ابداً. لكن في اسبانيا العادات تفرض بنا ان نحيي الجميع في الاماكن العامة. الاسبان شعب حار وصديق. سوف تكتشفين ذلك بنفسك.

جاء الخادم حاملا صينية المشروب وصحناً مليئاً بالمقبلات. فاندهشت صوفيا لرؤية الاصداف المقلية والتمر المحشو بالجوز واللوز، والزيتون الاسود الكبير، والسمك الصغير المقلي والمتبّل بصالصة حمراء حارة.

فجأة قال كارلوس:

ـ سأقول لك بصراحة... اني لم اعد اتذكر اسمك الاول.

ـ صوفيا.

ـ يعود هذا الاسم الى القرن التاسع عشر ويذكر في عدد كبير من الروايات القديمة. يذكرني هذا الاسم بأحدى لوحات الرسام الشهير فرانس كريستوفر جانيك.

ـ اسمي يعود بالتحديد الى القرن الثالث،

وباللغة اليونانية صوفيا تعني «الحكمة». ليس هناك اي علاقة لهذا الاسم بشخصيات هذا الرسام النمساوي.

وتساءلت صوفيا في قلق غامض: هل يفضل كارلوس النساء السهلات الفارغات والممتلئات، اللواتي لا يفكرن الّا باغراء الرجال؟ هل يعتبرها واحدة منهن؟

وفي هذه اللحظة وصل الخادم حاملا «البايلا» الحارة. كانت فعلا متعة للنظر. الرز المطبوخ مع الزعفران. وفوقه قطع الدجاج الصغيرة والصدف والكوسى والبازلاء والفلفل الاحمر والاخضر المقطعة بشكل اجنحة، والأرضي شوكي والطماطم...

ملأ الخادم صحنيهما وسكب لهما المشروب. وانصبت صوفيا على البايلا بنهم وحماس كجارتها الاسبانية السمينة.

وكانت الساعة قد اقتربت من نصف الليل عندما غادرا المطعم.

قال كارلوس مفكراً:

- الآن، اين سآخذك للرقص؟

- هذا مستحيل، بعد هذا العشاء الوليمة، بالكاد استطيع المشي!

- في هذه الحال، لنقم بنزهة في السيارة.

واشار لها بأصبعه الى تلة صوب الجنوب.

- من هذا الجبل، المنظر رائع. هيّا سآخذك الى هناك.

هزت رأسها وقالت:

- كلا ياكارلوس. يجب ان اعود. ليس معي مفتاح ولا اريد ان اوقظ الخدم.

لم يصرّ واخذ الطريق المؤدية الى منزل آل هلينغتون.

- غداً، ستأخذين الطائرة؟

- لا. لا. سأسافر براً.

- هل معك سيارة؟

- نعم.

- اين ستتوقفين مساء غد؟ عند اصدقاء آخرين؟

- آل هلينغتون ليسوا اصدقائي. انهم اصدقاء اهل كاتي التي جاءت معي من لندن ووجدت وظيفة هنا، في يافرانش. اما انا فسأذهب جنوباً من دون عجلة. ليس عندي برنامج محدد. عندما اتعب اتوقف.

اوقف السيارة امام البناية. ثم هبط معها وقال:

- سأرافقك حتى الباب.

صعد معها في المصعد. ثم اخذها بين ذراعيه وابعد قبعتها الى الوراء وعانقها عناقا طويلا ولم يتركها الا عندما توقف المصعد في الطابق الرابع. رنّ الجرس بنفسه ففتحت الخادمة الباب في

الحال.

فهمس بالاسبانية قبل ان يختفي في السلم:

- تصبحين على خير، ياحبيبتي.

ظلت صوفيا ثوان جامدة، تسمع صوت خطواته تخف كلما ابتعد، وادركت انها لم تشكره على هذه السهرة اللطيفة.

- صوفيا! اخيرا! اين كنت؟ من هو هذا الرجل الخارق الذي تكرر اسمه مراراً في اذني؟ لم تخبريني ان لك صديقاً اسبانياً ميليارديراً؟

كانت كاتي قد رمت المجلة التي كانت تقرأ فيها جانباً وراحت تنظر الى صديقتها بحماس واثارة. فقالت صوفيا باستغراب ودهشة:

- ميلياردير؟ لكن عمن تتكلمين، ياكاتي؟

بين ذراعي كارلوس اتحد الماضي بالحاضر عناقه الثاني اثار في اعماق الفتاة اضطراباً قوياً.

- سمعت السيدة هاكنباكر تقول هذا الكلام للسيدة هلينغتون.

الظاهر انه العريس الذي تحلم به الاسبانيات العازبات في اسبانيا كلها. وسيشعرن بالغيرة والحسد اذا ما عرفن انه يغازل فتاة انكليزية.

قالت صوفيا وهي تجلس على السرير الآخر لتخلع حذاءها الذهبي:

- لا تقولي اقوالا تافهة، يا كاتي اول ما في الامر هو ان كارلوس ليس اسبانياً.

- لم اقل انه اسباني. لكن علمت ان والده كان يملك مصرفاً انكليزاً كبيراً للأعمال. اما جده، والد والدته، فهو تاجر ثري كبير.

وليس من عجب ان يتمتع كارلوس بموهبة اسلافه. فهو يستثمر امواله في الحجارة، اي يملك الفنادق والفيلات في معظم انحاء اسبانيا. ان رجلك هذا لقطة لا تفوّت.

ـ اولاً، كارلوس ليس برجلي، التقيت به مرّة واحدة منذ زمن بعيد. والتقينا هذا المساء من جديد. اخذني الى مطعم شعبي حيث ذقت البايلا وابتعدت عن الملل في حفلة الاستقبال. وغداً كل واحد منا سيذهب بطريقه. والله وحده يعلم اذا كنت سألتقيه بعد هل تفهمين الآن، انه...

ـ عانقك في المصعد، اليس كذلك؟

ـ كيف... كيف علمت بالامر؟

ـ حزرت. من النادر ان اراك بهذا التعبير المنفتح والبشوش المرسوم على وجهك الآن... اين التقيت به، المرّة الاولى؟

ـ في... سويسرا.

لم تكن صوفيا تحب الكذب، لكن من غير المجدي ان تقول الحقيقة لكاتي. فلا يمكنها ان تصدّق كلامها، او تستوعبه.

ـ لا شك انك اعجبت به والا لما سمحت له ان يعانقك. هذه ليست من صفاتك، ياصوفيا.

رفعت صوفيا كتفيها وقالت:

ـ آه! ليست هذه المرّة الاولى التي اعانق بها رجلاً. لكني لا انوي ان اقيم اي علاقة عاطفية مع احد الاّ اذا كنت احبه ويحبني.

احمرّت وجنتا صديقتها وقالت:

ـ اعذريني، يا صديقتي العزيزة لا شك اني اغار منك. قصص الحب معي باءت بالفشل حتى الآن. اما انت فسرت في الطريق الصحيح. وعفتك ستنال جزاءها.

ـ ماذا تقولين يا كاتي؟ وجبة البايلا ليست طلب زواج... هل هناك اشياء اخرى تعرفينها عنه؟

ـ يقال ان كارلوس ولسينغهام يعيش مثل سلطان حقيقي.

ـ ماذا تعنين بذلك؟

ـ ذلك ان لكارلوس عشيقات في كل انحاء البلاد. لا اقول ذلك عن سوء نيّة يا صوفيا، لكن اذا كان كارلوس يعجبك فمن الافضل ان تكوني على علم بالاشاعات التي تحاك عنه.

دخلت صوفيا الى الحمام لتغتسل ومن الباب المفتوح سألتها:

ـ هل تدخل الرجال في هذا الموضوع؟ اعني الازواج؟

ـ كانوا منزعجين قليلا... اني اقسم ان لكلّ واحد منهم عشيقة. وبامكاننا ان نعذرهم بعد ما رأينا زوجاتهم! واكتفت السيدة الاميركية ان قالت ان كارلوس ناجح في اعماله وقوي جداً. هل تعرفين ما عمره؟

ـ ثلاثون سنة، على ما اظن. والآن اعذريني، سأغلق الباب.

وبعد دقائق خرجت صوفيا من الحمام لترى كاتي تغط بنوم عميق. شعرت بارتياح. فكّت كعكة شعرها وسرّحته مطولا. ثم صعدت الى السرير واطفأت الضوء وبالرغم من تعبها وجدت صعوبة لتنام...

سبق ان نبّهت السيدة هلينغتون الفتاتين بأنها تتناول الفطور في سريرها كعادتها لذلك فوجئت الفتاتان بها تدخل الى غرفة الطعام. ذلك لأنها ترغب في معرفة ماذا جرى لصوفيا في سهرتها برفقة كارلوس.

- هل امضيت سهرة جميلة، يا عزيزتي؟ في اي مكان تعشيتما؟

- لا اعرف اسم المطعم. انه في حي المرفأ. كان مصرا على ان تذوق البايلا المحلية.

في هذه اللحظة دخلت الخادمة ماريا حاملة سلة رائعة من القش تحتوي على باقة ضخمة من القرنفل الاحمر والابيض وفي الحال تعطرت الغرفة بأريجها. وقالت:

- هذه لك، يا آنسة.

رددت صوفيا مسحورة:

- لي انا؟

قدمت لها ماريا ظرفاً كتب عليه اسمها وعنوان آل هلينغتون.

فصرخت كاتي:

- يا الهي! هذه الباقة تكلف ثروة ضخمة في لندن.

قالت السيدة هلينغتون:

- حتى هنا، القرنفل ليس رخيصاً. لا شك ان السيد ولسينغهام احب...

فتحت صوفيا الظروف وقالت:

- في داخله قصيدة شعرية للماركيز دي سانتيلان، مكتوبة باللغة الاسبانية وغير موقعه.

سألت كاتي بحماس:

- وماذا يريد منك؟ هل يريد ان يراك اليوم؟

اضافت السيدة هلينغتون:

- اذا اردت البقاء هنا بضعة ايام، فليس لدي اي مانع. المنزل يرحب بك.

رفعت صوفيا عينيها ببطء وقالت:

- هذا لطف منك، سيدتي، لكني مضطرة الى مغادرة برشلونة صباح اليوم. لقد وعدت باستلام وظيفتي الاسبوع المقبل. افضل ان اقوم بالسياحة في طريقي. ويجب ان اكون حذرة، فربما تعطلت سيارتي... انها... مجرد كلمة صغيرة يشكرني فيها على العشاء اللطيف الذي شاركته به مساء امس.

بعد قليل، وبينما كانت كاتي توضب حقيبتها قالت لصديقتها:

- لا اريد ان اكون حشرية، لكنك لن تقنعيني بأنه لا يريد ان يراك من جديد بعدما ارسل لك باقة قرنفل رائعة.

- ربما التقينا في الجنوب. لكن كيف؟ فهو لا يعرف الى اين انا ذاهبة بالتحديد، ولا ماذا سأفعل. اذا كان يعمل في الحقل الفندقي، فلا شك ان مركز اعماله سيكون في مالاغا او ماربيللا. وهذا بعيد جداً عن مكاني الصغير في كوستا ديل سول... ماذا سأفعل بهذا القرنفل، ياكاتي؟ ستذبل اذا حملتها معي.

اجابت كاتي مبتسمة:

- يا صوفيا المسكينة! اذا كان من عادتك ان تسحري الاغنياء، فيجب عليك ان تتعلمي كيف تجدين حلاً لهذا النوع من المشاكل!

وبعد الساعة التاسعة كانت صوفيا في طريقها نحو الجنوب. فشرح لها حارس البناية من اين تغادر المدينة. وتمّ خروجها بسهولة. ولما وصلت قرب الضاحية، اوقفت سيارتها على طرف الرصيف لتقرأ من جديد بطاقة كارلوس.

ليس من السهل فهم قصيدة كتبت في القرن السادس عشر. وبعد صعوبة جمة، توصلت الى ترجمتها:

- لقد وقعت في حب فتاة من بوريس، قرب لالاما. ولما كنت قد

اقلعت عن الاكتواء بنار الحب، اعتقدت ان الحب قد نساني. لكني التقيت بهذا الجمال. كانت نضرة كالوردة. كان وجهها رائعاً. لم يسبق ان رأيت لون بشرة كامل كبشرتها. . .

وقبل ان تبتعد كلياً عن برشلونة، توقفت مرّة ثانية. فقد لاحظت وجود امرأتين تجلسان على كرسيين، في الظل. الاولى عجوز ترتدي اللباس الاسود، والثانية امرأة شابة حامل. عفوياً نزلت صوفيا من سيارتها وحملت باقة القرنفل وقدمتها اليها قائلة في لغة اسبانية مترددة:

ـ شاب قدم لي هذه الزهور الجميلة. لكن علي ان اجتاز مسافة طويلة في هذا الحرّ واخاف ان تذبل قبل وصولي. لذا اقدمها لكما.

صعدت الى سيارتها فتبعتها كلمات الفرح والدهشة:

صرخت المرأة الحامل قبل ان تقلع صوفيا بسيارتها:

ـ حظ سعيد يا سينيوريتا!

وعند الظهر توقفت من جديد، على بعد امتار قليلة من الطريق العام والبحر المتوسط يلمع تحت اشعة الشمس. أوقفت سيارتها في زقاق صغير وغيّرت ملابسها وارتدت بزة السباحة بسرعة وراء ستائر السيارة وتوجهت نحو الشاطىء.

وعلى الرمال الساخنة، بدت المياه باردة. لكن صوفيا معتادة على مياه المانش الهائجة والرمادية. فوجدت هذا الماء هنا رائعاً.

ـ لقد وقعت في حب فتاة من بوريس، قرب لالاما. . .

عاد الى ذاكرتها أول بيت من القصيدة بينما كانت تسبح بكسل في الماء الهادىء. واستعادت لحظة العناق في المصعد. ووجدت ان كارلوس يطابق الصورة التي رسمتها عنه بعد لقائها الخاطف قبل أربع سنوات. لكن سعادة صوفيا ليست كاملة. هل سيلتقيان مرّة

أخرى؟

خرجت من الماء ببطء وشعرها الطويل ينسدل على ظهرها. وبدأت تشعر بالجوع. على بعد ٤٠٠ متر لمحت اشارة مطعم فوق بناء صغير ابيض. ربما نجد هناك بعض السندويشات أو البيض المسلوق.

وبينما هي عائدة نحو سيارتها، انتفضت وبدأ قلبها يخفق بجنون قرب سيارتها، اصطفت سيارة بيضاء كبيرة. ونظرت حولها ورأت رجلا جالساً على كرسي طويل تحت شمسية ملونة. بدأت صوفيا تركض وتقول بفرح ظاهر:

ـ كارلوس! ماذا تفعل هنا؟

نهض واعطاها المئزر الازرق الذي تركته قرب صندلها ونظارتيها السوداوين فشكرته. فقال:

ـ الم تتوقعي رؤيتي؟

ـ لا، بالطبع! كيف تمكنت من ايجادي؟ هل هذا صدفة؟

ـ لا. طلبت من حارس المبنى ان يعلمني بساعة رحيلك. وعلى هذه الطرقات القاحلة من السهل ان ارى سيارتك البريطانية الصغيرة.

ذهلت صوفيا ولم ترد. ابتعدت بضعة خطوات، عصرت شعرها ووضعت شريطة عريضة فوق جبينها. ثم ارتدت نظارتيها وتقدمت منه فقال:

ـ لم تسلمي عليّ باليد بعد. في اسبانيا هذا امر حتمي.

وضعت يدها المرتجفة في يده السمراء فشدّ عليها مطولا قبل ان يرفعها على فمه. فقالت بصوت خفيض:

ـ كنت اعتقد ان في اسبانيا، لا تقبل يد النساء الاّ اذا كن

متزوجات.

قال في ابتسامة ساحرة:

- لا تنسي اني نصف اسباني... لا شك انك تشعرين بالظمأ. دعيني اقدم لك شيئاً.

كان يحمل براداً صغيراً فيه الثلج والمشروب المنعش البارد والاواني الفضية الملمعة. فاندهشت الفتاة لهذا الترف فقال لها:

- انها هدية من خالي. فهي قديمة العهد ولم تكن باهظة الثمن في الماضي. أفضلها على الاواني البلاستيكية. هل تعجبك؟

- آه، نعم!

سكب لها الشراب الاصفر الذهبي وقدم لها الكوب قائلاً:

- خذي. هذا عصير الفاكهة.

- كنت انوي شراء البيض المسلوق والسندويش من المقهى القريب من هنا.

- يقول المثل الاسباني:

عندما نريد الابيض، ننال الاسود. وعندما نريد...

قاطعته صوفيا ضاحكة:

- ... البيض المسلوق، نحصل على القريدس في اثناء قضمي... آه، تذكرت يا كارلوس، لم اشكرك بعد على باقة القرنفل الرائعة وعلى القصيدة...

- هل تمكنت من ترجمتها؟

- كلا.

كادت ان تقول له: لا داعي لذلك. لكنها تابعت تقول:

- اني اتكل عليك في ترجمتها لي.

- بكل سرور. لكن بشرط واحد.

- اي شرط؟

- ان تقبلي تناول العشاء معي الليلة.

- هذا يبدو صعباً. سيارتك امتن من سيارتي بكثير و...

- نعم، لكني سأتوقف في طريقي في فالنسيا لمدة ساعة على الاقل. وبامكاننا ان نلتقي في اليكانتيه. وهناك يوجد فندق جميل على مدخل المدينة. وبامكانك ان تصليه قبل العشاء بارتياح... ماذا، هل اتفقنا؟ سألتقي بك هناك وآخذك لزيارة اليكانتيه؟

ترددت صوفيا ثم قالت:

- اتفقنا. سأكون سعيدة ان اتناول العشاء معك... انت تعمل في الحقل الفندقي أليس كذلك؟ هل هذا الفندق في اليكانتيه ملكك؟

- كلا، لا املك هناك شيئاً. اعمالي في الجنوب فقط. لكني اعرف صاحب فندق ميرامار وسيستقبلنا بترحاب.

قالت صوفيا مبتسمة:

- عندما نريد الابيض، ننال الاسود... كنت انوي التوقف في مخيّم على الطريق.

قال كارلوس وهو يرفع كتفيه:

- المخيّم عملية مربحة للطلاب، وللعائلات التي تحب قضاء عطلة اقتصادية. لكن المخيمات عادة تعج بالسيّاح ونادراً ما تتوفر فيها وسائل الراحة. في اسبانيا افضل شيء يقوم به السياح هو النزول في البرادور، اي في الفنادق الرخيصة والفاخرة في آن واحد، التي تديرها الدولة. بعض هذه الفنادق كانت في الماضي قصوراً قديمة او اديرة.

كانت صوفيا تحتسي فنجان القهوة. الغداء اللذيذ والاسترخاء في

الكرسي الطويل، في الهواء الطلق، قرب شاطىء البحر وفي الحرّ الشديد جعلها تشعر بالنعاس. بينما رفيقها لم يكن تبدو عليه اي اشارة تعب.

- قدماك رائعتان يا صوفيا. واصابع رجليك نحيفة وجميلة وغير مشوهة، لأنك لا شك لا ترتدين الاحذية الضيقة؟ اخلعي مئزرك كي تجف بزتك بسرعة.

- نعم، انت على حق.

ما ان خلعت مئزرها حتى ندمت على ذلك. ليس لأنها خجلت، بل لأن كارلوس راح يتأملها بوقاحة جعلتها تحمرّ فقالت بسرعة:

- سأعود الى البحر. ما رأيك انت؟

- آه لا! ليس الآن، بعد الغداء مباشرة! لنمشي قليلاً.

نهض وامسك يدها. كانت الساعة الثانية، ساعة القيلولة الاسبانية. لا صوت، بل صمت على الشاطىء المهجور. تقدما ببطء على الرمل الساخن. حلمها اصبح حقيقة واقعية. يمشيان يداً بيد. هذا المساء سيريها كارلوس اليكانتيه وسيترجم لها قصيدة سانتيلان.

- يجب عليك ان تشتري قبعة من القش لتحمي راسك من الحرّ ومن آلام الرأس.

- نعم. فلن يتطاير شعري.

توقف واخذها بين ذراعيه وقال:

- لا اريدك ان تتلفي هذا الشعر الجميل الحريري.

هل سيعانقها من جديد؟ لا. بعد لحظة ابعدها عنه فجأة وقال:

- من الافضل الانطلاق.

وما ان اقلعت السيارة البيضاء نحو الجنوب، حتى عادت صوفيا

الى سيارتها وارتدت ملابسها وبدأت تقود في هذا الحرّ الخارق.

وصلت الى فندق ميرامار ساعتين قبل الموعد المتفق عليه. اوقفت سيارتها في مرآب الفندق. وظهر في ملامح الموظف انه كان يتوقع مجيئها. رافقها الخادم الى غرفتها ووراء الستائر الخضراء من النخيل، كان البحر الابيض المتوسط يلمع كالبرق.

اخذت صوفيا حماماً وغسلت شعرها ولما استعدت، لم يكن بامكانها المطالعة كما هي عادتها لشدة توترها، فهبطت الى البهو لتشتري بعض البطاقات السياحية. كانت منهمكة باختيار بعض منها عندما لمحت كارلوس يدخل الفندق وحقيبته في يده. آه، هو ايضاً سينزل هنا في فندق الميرامار! لماذا تصوّرت انه سينزل في فندق آخر في اليكانتيه؟

قال مبتسماً:

- مرحباً. انهيت عملي ابكر مما كنت اتصوّر.

كان يسجل اسمه على لائحة الفندق عندما خرج شاب اسباني من مكتب قريب وسلّم على كارلوس. فقام هذا الاخير بالتشريفات. وعرفت صوفيا انه مدير الفندق. ويتكلم الانكليزية. ثم ابتعدت عنهما صوفيا لابتياع بعض الاغراض من محل الفندق. وسمعت الحديث الذي يدور بين الرجلين. سأله كارلوسُ باللغة الاسبانية عن حال زوجته واولاده فأجابه المدير:

- وانت، يا كارلوس، انت دائماً مقرر على الدفاع عن حريتك، اليس كذلك؟ هل تعيش مع هذه الفتاة الجميلة من زمان؟ وكم ستدوم علاقتكما؟ لا اكثر من اسابيع معدودة، اليس كذلك؟

- آه، يا خوسيه انا لا اطارد النساء. لكن اذا لحقت بي فتاة ما، فماذا تريدني ان افعل؟ لست بناسك . . فضلاً عن انها رائعة . . .

هل غرفتانا متصلتان، على ما أظن؟

ـ بالطبع. وأوكد بأن باب الاتصال سيفتح بسرعة، يا محظوظ!

ـ من دون تعليق، ارجوك.

اقترب كارلوس من صوفيا وسألها باللغة الانكليزية:

ـ اطلب منك ان تعطيني فرصة ربع ساعة كي آخذ حماماً واغيّر ملابسي. سألتقي بك على الشرفة، حيث نأخذ كأساً قبل الخروج.

ربّت على كتفها بحنان ومن دون ان ينتظر منها جواباً، اختفى داخل المصعد.



٢ـ برج النجوم

امضت صوفيا الليل تحت اشجار النخيل، في ضواحي المدينة. كانت تبحث عن فندق عندما شاهدت اشارة «مخيم على بعد ٥٠٠ متر»، وفضلت ان تتبع الاشارة بدلا من المغامرة وسط المدينة.

وبالرغم من وصولها المتأخر، وجدت مكاناً داخل المخيّم. اوقفت سيارتها بعيداً. رمت ما تبقى من القرنفل وسلة القش واغلقت الستائر، خلعت ملابسها ودخلت في المقعد الخلفي، غطت نفسها ببطانية وراحت تبكي مطولا على فتات حلمها الجميل الذي حطمه كارلوس ارباً ارباً.

وفي اليوم التالي، توجهت الى صالات الحمام التابعة للمخيم ولما نظرت الى انعكاس وجهها في المرآة، ذعرت للمنظر! جفناها

متورمان والكحل وسّخ وجهها. فمساء امس كانت مضطربة لدرجة انها نسيت ان تزيل الزينة عن وجهها.

وبعدما اغتسلت وسرحت شعرها، شعرت بتحسن ملموس. فابتلعت حبتي اسبرين واحتست فنجان قهوة ساخن صنعته بواسطة غازها الصغير. لكنها كانت تعرف انها بحاجة الى وقت طويل كي تنسى الصدمة والذل اللذين تعرضت لهما بالامس.

امضت صوفيا جزءاً من الصباح ممددة قرب حوض السباحة تأخذ حمام شمس لتستعيد نشاطها وتستجمع افكارها المبلبلة. اقتربت منها فتاة فرنسية وسألتها اذا كانت قد زارت «حديقة القس» الواقعة على الطرف الآخر من الطريق. فأجابتها صوفيا بأنها ستزورها بعد قليل.

قررت صوفيا ان تخصص نهاراً للاستراحة بغية الاستعداد للرحيل في الغد. غداً ستبرق الى عملها وتشرح له رغبتها في التخلي عن وظيفتها، ثم تجتاز الحدود من جديد وتبحث عن عمل آخر، في بلد آخر، حتى لا يتسنى لها اللقاء بكارلوس ولسينغهام من جديد.

لكن، بعدما تنزهت في هذه الحديقة الرائعة، حيث تنبت اشجار الحامض والجوز وشجر النخيل، غيّرت رأيها. لا، لا يجب عليها احراج موقف عملها الجديد، السيد بيدرو فينفيلد. ومن الحماقة ان تغادر اسبانيا من اجل تفاهة رجل جذاب كاد ان يورطها بمأزق لا رجوع عنه. كيف آمنت، بان رجلا غنياً وجذاباً مثل كارلوس يمكنه ان يقع في حبها من اللقاء الاول؟ ما كان يقوله لصديقه خوسيه مدير الفندق كان حقيقة مرعبة، ذلك لأنها اوحت له بتعلقها فيه. كيف بامكانه ان يعرف انها لم تعتبره يوماً رجلاً غريباً؟

وفي الطرف الآخر من الحديقة، توقفت امام شجرة نخيل رائعة

وقديمة عمرها لا يقل عن مئة وخمسين سنة. وبينما كانت تتأمل جذعها الضخم الطويل، استمرت في التفكير بخيبة املها. كانت على استعداد ان تعترف بخطئها في ما يتعلق بكارثة الامس. لكن كارلوس نفسه، الا يلام على تصرفه هذا؟ انه انكليزي الاب ولد وترعرع في انكلترا، ولا عذر له، اذا لم يعرف ان يميّز بين فتاة تحب المغامرة، وبين فتاة مغامرة! حان له الوقت، بمثل سنه، ان يعرف الفرق بين امرأة مثيرة وامرأة مستعدة لأن تهبه قلبها.

نعم، لقد اظهرت عن سذاجة متطرفة. آه، كم كان مخطئاً في ارساله قصيدة الحب لها!

- لقد وقعت في حب فتاة من بوريس. . . اعتقدت ان الحب قد نساني. . .

اي امرأة تقرأ هذه السطور، لا تتصوّر ان من ارسلها يحبها حتى الجنون؟

وخلال فترة بعد الظهر، نامت القيلولة داخل سيارتها. ولما افاقت وجدت المخيّم قد امتلأ بخيم جديدة. اخذت حماماً سريعاً ثم راحت تتنزه في الشارع. فجأة احست بالجوع وتذكرت انها لم تأكل شيئاً منذ اكثر من ٢٤ ساعة فتوقفت امام بائع قريب واشترت كيساً من البلح.

وفي المساء تناولت طعام العشاء في المطعم الصغير التابع للمخيّم. بعد العشاء، احتست فنجان قهوة وراحت تقرأ الكتاب الذي اهداه لها جدها في عيد ميلادها: «قصص الحمراء». اندمجت في القراءة التي نقلتها الى مئة وخمسين سنة في الماضي الى عهد واشنطن ايرفيغ. ونسيت مؤقتاً عذاب قلبها المحطم.

في اليوم التالي، ومنذ السابعة صباحاً بدأت آخر مرحلة من

رحلتها، عازمة ان تطرد من رأسها كل ما حدث لها منذ وصولها الى برشلونة حتى هروبها من فندق الميرامار، منذ يومين.

وبينما كانت تقطع المسافات الشاسعة بسيارتها في هذه المنطقة الجردية حيث لا ينبت فيها سوى الصبّار والاشواك.

فجأة، نظرت الى المرآة الارتدادية وشحب لون وجهها. سيارة بيضاء كبيرة تقترب من سيارتها بسرعة رهيبة. . .

لكن ما ان تجاوزتها السيارة بعد ثوان معدودة حتى اطلقت زفرة ارتياح ذلك لانها كانت تحمل رقماً سويسرياً.

وبعد ما قطعت الميريا، بدأت تسير على الساحل. أي فرح ان ترى البحر من جديد بدأت صوفيا تقترب من المكان الذي تقصده. نظرت الى العداد امامها، لقد اجتازت حتى الآن منذ مغادرة منزل جدها، ما يقارب ثلاثة آلاف كيلومتر. تهيأ لها انها تقود منذ أسابيع عديدة وحان الوقت للوصول. . .

وساعة الغداء توقفت في مدينة صغيرة جميلة تدعى افوادولتشي. كانت في سيارتها الواقفة في الظلّ، تأكل ما تبقى من التمر الذي اشترته بالامس، عندما خرج رجل من البناية المجاورة ونظر باتجاهها.

اعتقدت في بادىء الامر انه كارلوس واصيبت بخوف كبير. لكن سرعان ما اقتربت منه امرأة وراحت تحدثه. فتبيّن لها في الحال انه لا يشبه كارلوس ابداً!

وقالت صوفيا غاضبة على نفسها: اذا كان عليّ ان انتفض مذعورة كلما التقيت برجل طويل واسمر، ستنهار اعصابي بسرعة!

وفي الخامسة، وصلت اخيراً الى «برج المووزر» حيث ستعمل هناك حتى آخر ايلول (سبتمبر). وامام مكتب الاستقبال كانت امرأة

شقراء تعلق اعلاناً عن حفلة فلامنغو. التفتت لدى سماعها خطوات وصرخت:

ـ صوفيا! لم نكن ننتظر وصولك باكراً!

ـ مرحباً يا مارغريت! كيف حالك؟ نعم، وصلت ابكر مما كنت اتوقع. آمل الا تجدي مانعاً بذلك؟

اجابت مارغريت فينغيلد في لغة انكليزية جيدة:

ـ لا، ابداً. المخيم لم يمتلىء بعد، كما ترين، لكن مع ذلك هناك اعمال كثيرة لك. . . آه، هذا بيدرو.

بيدرو فينغيلد يشبه زوجته، بعينيه الزرقاوين وشعره الاشقر. لحيته طويلة ومجعدة ويرتدي سروالا معرّقاً.

ـ انا سعيد لرؤيتك، يا صوفيا! هل كانت رحلتك موفقة؟ ما هي انطباعاتك الاولى عن اسبانيا؟ انت متعبة، اليس كذلك؟ اجلسي. سأجلب لك الشراب المنعش.

ـ لن اجلس شكراً. فانا بحاجة الى بعض الحركة، يا بيدرو. لقد سئمت الجلوس. اشعر برغبة في السباحة، هل هذا ممكن؟

ـ طبعاً. خذيها اذن يا مارغريت الى حوض السباحة وانا سأحل مكانك في مكتب الاستقبال.

رافقت مارغريت صوفيا الى سيارتها قائلة:

ـ الشاطىء المخصص لرواد المخيم يقع وراء التلة. لكننا حصلنا على اذن في استعمال حوض السباحة التابع للبرج، فقط عندما لا يكون احد هناك.

وكانت تشير الى برج المرصد الذي يعلو المخيّم. ثم اضافت تقول:

ـ انها احدى المنازل الصيفية العائدة الى رجل اسباني ينتمي الى

عائلة عريقة ونبيلة. في الصيف الماضي لم يقض فيها الا بضعة أيام خلال شهر ايار (مايو). احياناً يعيرها الى اصدقائه. لكن في معظم الاحيان، تكون مهجورة.

اخذت صوفيا من سيارتها كل ما تحتاجه للسباحة. تابعت المرأة الهولندية تقول:

- سأدلك على خيمتك. وهناك تغيرين ملابسك. انها صغيرة وآمل ان يكون في امكانك التحرّك داخلها. لكن موقعها ممتاز، اذ تقع في الظل وبعيداً عن البنايات المجاورة. وهذا امر هام للغاية، ذلك لأن سكان تلك البنايات يقيمون الحفلات التي تدوم حتى الثانية او الثالثة بعد منتصف الليل. وهذا الضجيج المحتم يزعج سكان المخيم الذين يفضلون النوم باكراً والنهوض باكراً.

وبعدما ارتدت صوفيا بزة السباحة، تبعت مارغريت في طريق صخرية تصل الى جدار ابيض مرتفع. اخرجت المرأة المفتاح من حقيبتها وفتحت باباً ضخماً واشارت الى صوفيا بالدخول.

لكن الفتاة الانكليزية لم تحبس دهشتها وهمست باستغراب:

- آه، يا مارغريت، انه مسكن يشبه الجنة!

وسط ساحة تحيطها الازهار العديدة، يعكس حوض السباحة على سطحه الهادىء السماء الزرقاء. ووسط الحوض ينتصب سبيل صغير. كبست مارغريت على زر مخبأ وراء الاوراق التي تغلف الجدار، وانبعثت المياه فجأة باتجاهات عديدة لتسقط من جديد في الحوض آخذة كل الوان قوس القزح.

قالت مارغريت بعد نصف ساعة:

- لو كان هذا المسكن ملكي، لسكنته طيلة أيام السنة.

كانت الامرأتان جالستين على حافة الحوض تؤرجحان أقدامهما

في الماء، وتتأملان الانعكاسات الملونة.

سألت صوفيا بفضول:

- وكيف هو داخل البيت؟

- المنزل مليء بالاثاث الفاخر واللوحات الرائعة والبساط القديم. البرج مكيف صيفاً شتاء. فالجوّ رائع والرطوبة معتدلة. البستانيّ يأتي كل يوم للاهتمام بالحديقة. كما هناك امرأة من القرية مهمتها الاهتمام بالمنزل كله. فصاحبه رجل غني وماركيز.

- هل هو متزوج؟

- نعم. ولديه الكثير من الاولاد. زوجته شابة وجميلة، بينما هو يكبرها سناً انه قصير وسمين. لكنه قوي . . . واصلع ومهما يكن في الامر فاني افضل العيش مع زوجي في المخيّم!

في المساء تناولت صوفيا العشاء مع آل فينغيلد. وقبل النوم تمددت على كرسيّ طويل، وراحت تتأمل «برج المووز» المضاء بنور القمر، واطلقت لمخيلتها العنان.

في اليوم التالي بدأت العمل. اخذها بيدرو في جولة داخل المخيم وقدّمها الى الموظفين. معظمهم من الاسبان يعيشون في المناطق المجاورة. كان هناك زوجان اسبانيان للاهتمام بالحمامات، وعجوز يدعى ماريو للاهتمام بالحديقة ورمي النفايات، وكذلك المسؤولون عن دكاكين المخيّم، والطبّاخ، وخدم المطعم.

وبعد الغداء، بينما ذهب بيدرو الى الحوض للسباحة، ثم الى القيلولة، بقيت صوفيا مع مارغريت في مكتب الاستقبال لتتعلم طريقة تشغيله. وفي آخر فترة بعد الظهر، اصطحبتها مارغريت الى مدينة صغيرة مجاورة تدعى الموتيكار وكان ذلك في ساعة النزهة المسائية. الشوارع والارصفة مليئة بمجموعات من الناس المشتاقين

الى الاستمتاع ببرودة الجوّ واشعة شمس المغيب.

بعد مرور أسبوع على وجود صوفيا في المخيم، استطاعت ان تستوعب عملها ومتطلباته بصورة اكيدة، لكن الصعوبة الوحيدة التي كانت تعترضها هي اللهجة المحلية وامكانية فهمها.

مرت ثلاثة أسابيع وهي تتكيف مع الجوّ بصورة عادية. وذات صباح جاءت الخادمة التي تتولى السهر على برج المووزر تعلم مارغريت بأن اصدقاء الماركيز سيصلون في المساء لقضاء يومين في الفيلا وهذا يعني ان آل فينغيلد ومن يتبعهم لا يحق لهم استعمال حوض السباحة في مدة اقامة اصدقاء الماركيز في منزله.

وفي فجر اليوم التالي توجهت صوفيا نحو الشاطىء لتستحم كعادتها. بيدرو ومارغريت لا يستحسنا الشاطىء الرملي الرمادي وخاصة من جهة انحاء الساحل على المنحدر الصلب حيث يصب في المياه العميقة وحيث كانت الحصى المكدسة تجعل المشي صعباً وشاقاً، خاصة اذا كان المتجول عاري القدمين. ويا للخيبة لمن يتصور ان كوستا ديل سول مجموعة خلجان صغيرة رائعة مغطاة بالرمل الذهبي الناعم!

اما بنظر صوفيا، فشفافية الماء والغوص في اعماقها بواسطة القناع والمجذافين، امور تكفي لاخفاء الشوائب الشكلية. كانت تحب الحانة الصغيرة المبنية من القش الواقعة تحت ظلال بعض الاشجار، على مقربة من الشاطىء الرملي. وكان مدير الحانة شاب انكليزي يدعى مايك، يعامل سكان المخيم بلطف وابتهاج.

وبينما كانت تعبر قرب جدار حديقة البرج سمعت صوتاً غير اليف فخففت سرعتها. فأتت الى مسمعها ضحكات رجل مسرور. ابتسمت صوفيا وقالت لنفسها. لا شك ان ضيوف الماركيز من

الشباب المرحين، او ربما زوجان في شهر العسل.

وسرعان ما قتم وجهها وراحت تفكر بقدرها... كانت تفعل جاهدة كي لا تزيد حزنها ثقلا وذلك بالصمت وعدم اظهاره للغير. لكنها كانت احياناً تشعر بألم وحزن كبيرين.

في هذه الساعة المبكرة كانت الحانة مقفلة. وعلى الشاطىء الفارغ من الناس، لم تر سوى حمار ابيض مربوط بحبل في شجرة صغيرة. لما رآها، راح ينهق بألم. فاسكتته باعطائه قطعة صبّار وبعض الجزر. وبعد قليل كانت تعوم في الماء الفاترة تتأمل صفاً من الاسماك الصغيرة الملونة.

عادة، عندما تسبح قبل فطور الصباح، لا تحمل معها منشفة او مئزراً ذلك لأن الناس ما زالوا نياماً ولا احد على البحر. وفي طريق العودة تتوقف لتأخذ حماماً وتغسل شعرها قبل التوجه الى خيمتها.

وفي هذا الصباح بالذات، ما ان خرجت من الماء حتى رفعت القناع فوق جبينها وصعدت المنحدر المليء بالحصى، وفي يدها المجذافان وفي قدميها صندل رقيق. وبينما كانت متوجهة نحو المخيم، سمعت شخصاً يناديها:

ـ لحظة، يا آنسة، من فضلك!

انتفضت من شدة المفاجأة ورفعت عينيها نحو الصوت ورأت على بعد عشرة امتار من فوقها رجلا واقفاً بين تلة الصخور، ينظر اليها بقسوة: كارلوس ولسينغهام.

بذعر وصمت رأته يقفز من صخرة الى اخرى حتى وصل قربها وقال بصوت بارد:

ـ ... آه لم اكن اتوقع ان اراك هنا. للحقيقة تملكين عبقرية المفاجآت. تظهرين بطريقة غير منتظرة وتختفين هكذا.

- ربما فوجئت برحيلي السريع من فندق ميرامار. لكن الامر كان طبيعياً وفي غاية البساطة. للأسف من اجلك لأنك تعرفت على فتاة تفهم الاسبانية. فسمعت حديثك مع السيد غارسيا وفهمت محتواه، وخاصة فيما يتعلق بموضوعي انا. لا، يا سيدي، لم انجذب اليك بغية اغوائك. انت اخطأت كلياً وانا اكره الرجال الذين يعتبرون النساء كدمى!

قررت اكمال سيرها لكنه امسكها بذراعها وقال:

- لماذا لم تقولي هذا الكلام في تلك الليلة بالذات؟ لكان ذلك افضل من الاختفاء من دون شرح او كلمة.

- لا تقل لي ان هذا التصرّف ازعجك، ورحت تفتش عليّ في كل مكان!

- بلى. بحثت عنك كثيراً، ارجوك، صدقيني.

- لا اصدقك. . . والآن، ارجوك ان تتركني اسير بدربي، من فضلك.

- حسناً، لكن لا تحاولي الهرب، لأنني سأمنعك من ذلك.

- وتجرؤ على سؤالي لماذا تركت فندق ميرامار من دون شرح او كلمة!

امتلأت عينا كارلوس الرماديتان غضباً وقال:

- هل تصوّرت انه بامكاني ان احصل عليك بالقوة؟

- كنت دائماً افضّل الا اتورط بمثل هذه الامور.

سمعا صوت تساقط الحصى فوقهما، فالتفتا ليريا فتاة صغيرة ترتدي سروالاً قصيراً وقميصاً وتقترب منهما. شعرها الاسود الطويل مجدول ومرفوع فوق رأسها ولون بشرتها يشبه لون القهوة مع الحليب.

ولما وصلت قرب الصخور التي قفز فوقها كارلوس، ترددت. فأسرع الرجل اليها وحملها، ثم وضعها على الحصى بلطف. لم يكن عمرها يزيد عن الثانية عشرة. فقدمها كارلوس لصوفيا.

- اقدم لك ماري لويز ابنة ابن عمي، صاحب البرج. وهذه الآنسة لينغوود.

قالت الفتاة باللغة الانكليزية مع انحناءة صغيرة:

- صباح الخير، يا آنسة.

وبعدما حيّتها باليد التفتت صوفيا نحو كارلوس وقالت له باختصار:

- انا مستعجلة ولا أريد ان أصل متأخرة لموعد فطور الصباح. في كل حال المناقشة أقفلت. الى اللقاء، يا سينيور!

وفي فترة الصباح ارسلها بيدرو لتضع المال في مصرف المونيكار.

لدى عودتها وصل بعض المخيمين الجدد الذين لا بدّ من الاهتمام بهم. ولم يتسن لمارغريت ان تعلمهم بالخبر الكبير الاّ في فترة الغداء عندما قالت:

- بيدرو، نحن مدعوون مساء اليوم الى العشاء في فيللا البرج. جاء كارلوس ولسينغهام الى المخيم خصيصاً من اجل ذلك. لن يبقى هنا سوى يومين فقط. وانت مدعوة أيضاً، يا صوفيا. طرح علي اسئلة عديدة بخصوصك. انه شاب جذاب وبامكانكما الاتفاق كلياً.

- التقيت بهذا الرجل على الشاطىء صباح اليوم. لكني لا احب هذا النوع من الرجال. ستعتذرين منه يا مارغريت في المساء لأني لن البّي دعوته.

اندهشت المرأة الهولندية وقالت:

- لا شك انك تمزحين. لا يمكن لأحد ان يكره كارلوس. انه لطيف وطيب. وحسب ما لاحظت انه يشعر نحوك باعجاب كبير.

- انت مخطئة. في كل حال، انا لم اعجب به ولا أرغب في رؤيته.

قال بيدرو وهو ينظر اليها بتأمل:

- انت تضعينا الآن في موقف حرج. لا شك انك تعرفين... ان هذا المخيّم هو ملك كارلوس. صحيح هذا المشروع لا يدر له اموالا كثيرة كغيره من مشاريعه العديدة، لكنه يهتم به جيداً. وفي السنة الماضية حضر الى المخيّم عدة مرات بصورة فجائية ليقوم بتفتيش دقيق لمعرفة ما اذا كان كل شيء على ما يرام.

- المخيّم له؟ تصوّرت ان الماركيز صاحبه!

- لا، لا. الماركيز يملك فقط البرج والحديقة وكارلوس يملك المخيّم والابنية المجاورة.

قالت مارغريت:

- هذا يعني ان كارلوس يملك عملنا ولا مجال لازعاجه وجرح شعوره، هل تفهمين؟... وبالرغم من احساسك تجاهه، فلا يجوز ان تحرمي نفسك من عشاء لذيذ ومن فرصة التعرف الى التحف النادرة الموجودة داخل الفيللا.

ثم اضافت لتلفت نظر الفتاة وقالت:

- هناك كتب عديدة، نادرة ومغلفة بأرقى ما يمكن.

لم تكن صوفيا تريد اساءة شعور آل فينغيلد، فرضخت للأمر الواقع، لكنها لم تمتنع عن طرح السؤال التالي:

- لا شك ان بينكما وبينه عقد عمل؟ لا يمكن لكارلوس ولسينغهام ان يطردكما اذا ما وجد رغبة بذلك؟

- طبعاً، هناك عقد بيننا. وحتى اذا لم يكن هناك عقد بيننا، فليس

كارلوس من نوع الرجال الذين يتصرفون هكذا من دون حجة ملموسة. من هذه الناحية، انا مطمئنة البال... منذ سنتين ونحن نعمل عنده. واذا اعجبه عملنا، ربما اقترح يوماً ما على بيدرو مركزاً ثابتاً ومرموقاً، ذلك لأننا نحب البقاء في اسبانيا. لم نعد قادرين على تحمل طقس هولندا وشعبها. انت تعرفين جيداً الجوّ هناك، يا صوفيا!

وهذا يطبق تماماً على الوضع في انكلترا.

- معك حق. لكن بنظري لا يكفي هذا كحجة كي تغادرا الوطن بشكل نهائي... وكوستا ديل سول لن تبقى كما هي الآن، بعد مرور الزمن.

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة والنصف عندما صعد الثلاثة نحو البرج. ارتدى بيدرو بزة فاتحة بينما ارتدت مارغريت قميصاً من الدانتيل فوق تنورة طويلة معرّقة وسرّحت شعرها عند الحلاق...

اما صوفيا فارتدت ابسط الملابس: فستان ابيض من قماش الكاباردين، صندل احمر وحقيبة يد حمراء، عقد ذهبي طويل معقود مرتين حول عنقها وربطت شعرها الى الوراء بشريطة من القش.

ووراء الباب العام، كانت الحديقة تعبق بالعطر الناعم. طرق بيدرو الباب. وفي الحال فتحت ماري لويز وادخلت الضيوف الى بهو بشكل نصف دائرة. ومن ثم صعدوا السلالم الحجرية الى الطابق الاول حيث تبعوا الفتاة الصغيرة الى الصالون. وفوجئت صوفيا وهي تنظر الى النافذة وترى خليجاً واسعاً يطل على البحر.

نهض كارلوس ليسلم على ضيوفه ويقدمهم الى عمته العجوز الانيقة.

وخلال العشاء بينما كان الرجلان يتحدثان في الاعمال ومارغريت

ثرثر مع الفتاة، التفتت السيدة ماك كينلاي نحو صوفيا قائلة:

- هذه اقامتك الاولى في اسبانيا، اليس كذلك، يا آنسة؟ لكنك تتكلمين لغتنا جيداً.

- ما زلت اجد صعوبة في فهم لهجة هذه المنطقة.

- اعرف ما تشعرين به، ذلك لأني لاقيت الصعوبات نفسها في بداية زواجي. مع العلم اننا وظفنا مربية انكليزية في المنزل. لكن عندما كنت اسكن عند حماي في اسكتلندا، قرب داندي، لم اكن أفهم كلمة واحدة يقولها الخدم.

- ولا شك انك وجدت صعوبة ايضاً في التأقلم مع المناخ الاسكتلندي؟

- لم يكن هناك سبب لذلك، لأن زوجي كان يعمل في السلك الدبلوماسي ومعظم الوقت كنا نعيش في الخارج. اما اليوم فقد تقاعد. وبعد رحلاتنا المستمرة، كنا نرغب بأن نستقر نهائياً في بلدتنا الاسكتلندية المعزولة. لكن بعد شتاء بارد وطويل شعرت برغبة ملحة ان ارى الربيع من جديد في بلاد الاندلس. نحن الآن عند جد ماري لويز. ولما جاء كارلوس واخبرني بأنه ينوي القيام بجولة نحو الساحل من سان بيدرو حتى مونتريل، شعرت بحاجة ان ارى ما فعلته السياحة بهذه المنطقة القاحلة قديماً. لكن زوجي العزيز اعتبر ان هذه الرحلة ستتعبه فجاءت ماري لويز مكانه.

- اذن، ماري لويز هي حفيدتك، اليس كذلك؟

- كلا. انها حفيدة اخي. . وانت يا آنسة، هل تنتمين الى عائلة كبيرة؟

اجابت صوفيا باختصار:

- كلا.

لم يكن من طبيعتها ان تكون منغلقة. لكن، بسبب كارلوس، فضلت ان تكون حذرة ومتحفظة.

سألتها السيدة ماك كينلاي:

- ومن اي منطقة انت؟

- من منطقة ساسيكس.

وكي لا تستمرّ العجوز بطرح الاسئلة، رأت صوفيا ان تخبرها عن البلدان التي احبت ان تعيش فيها.

وبعد تناول القهوة اعتذرت الفتاة الصغيرة وتمنت للحضور ليلة سعيدة ثم وجهت سؤالاً لصوفيا:

- هل تحبين رؤية غرفتي، يا آنسة؟

لم تتمكن صوفيا من ايجاد عذر للرفض، فتبعتها حتى الطابق الثالث المخصص للأولاد. ولدى رؤية الاسرة ذات الطابقين والطلاء اللماع للأثاث المصنوع من خشب الصنوبر، خيِّل اليها انها في باخرة.

قالت ماري لويز عابسة متأسفة:

- افضل النوم على الشرفة والمجيء الى هنا مرّات عديدة لأني احب السباحة جداً.

- الا تذهبين الى المدرسة؟

- وضع لنا والدنا معلماً خاصاً. اما اخي فيدرس في معهد بسويسرا. وسيلحق به ستيفان عندما يبلغ الثالثة عشرة من عمره. امي ترى ان الفتيات عليهن البقاء في المنزل. وانت، يا آنسة، هل ذهبت الى المدرسة؟

- نعم. لكني كنت أعود في المساء الى المنزل. . . هل بامكاني النظر الى كتبك؟

وبينما كانت ماري لويز تخلع ملابسها كانت صوفيا تلقي نظرة الى الرفوف المليئة بكتب الاولاد. انها موسوعة ضخمة ومتنوعة. وفي احدى الكتب القديمة قرأت في الصفحة الاولى اهداء بأسم كارلوس جايمس ولسينغهام. فتعجبت وتساءلت اذا كان كارلوس يحب المطالعة هذا لا يتفق مع طبعه الحيوي النشيط.

فجأة سمعت طرقاً على الباب. فقالت ماري لويز في الحال:

- ادخل.

دخل كارلوس وقال:

- هل تحبين، يا صوفيا، رؤية المنظر من قمة البرج؟ ستأتي ماري لويز معنا. فلن تتورطي اذا جئت!

اكدت الفتاة بشدة:

- آه، ليس هناك خطر بوجود الدرابزين.

تسلق الثلاثة سلماً خشبياً. وبعدما رفع كارلوس باب السقف، خرج الى السطح ومدّ يده ليساعدهما.

ومن هذا الارتفاع بدت الابنية القريبة من المخيّم كأنها علب كبريت. ومن بعيد كانت اضواء مدينة المونيكار تشع. اتكأت صوفيا لحظة على طرف الدرابزين وقالت وهي تنظر الى البحر الهادىء:

- الحجر ما زال ساخناً.

كانت ماري لويز تتأمل النجوم وشعرها الجميل يتطاير فوق قميص نومها القطني المعرّق ثم قالت:

- لماذا لا تسمح لي ان انام هنا، يا عمي كارلوس؟ ماذا يمكن ان يحدث لي؟.

- لا شيء. لكن والديك لن يوافقا. هيّا بنا الآن، حان الوقت كي تنامي. فلم تأخذي القيلولة بعد ظهر اليوم.

- تصبحين على خير، يا آنسة.

قالت صوفيا بسرعة غير راغبة في البقاء وحيدة مع كارلوس:

- لكننا سنهبط معك!

ولما وصل الجميع الى غرفة الفتاة، شدت ماري لويز على يد صوفيا بعد انحناءة صغيرة. بينما ارتفعت على رؤوس اصابعها لتطبع قبلة على خد كارلوس الذي انحنى للحال.

استغربت صوفيا عندما نزل كارلوس يصمت الى حيث بقية الحضور ولم يلمّح لما جرى بينهما من حديث في الصباح.

لكن قبل ان يدخل الى الصالون قال:

- اذا احببت ان توافينا الى حوض السباحة غداً قبل الفطور، فأنت على الرحب والسعة.

- شكراً، لكنني أفضل البحر.

كانت السيدة ماك كينلاي وحدها في الغرفة، تضع نظارتين سميكتين وتحيك النول.

ولما لاحظت اندهاش صوفيا، راحت تشرح قائلة:

- اضطر بيدرو ومارغريت ان يغادرا بسرعة. فقد جاء شخص من قلب المخيم ليخبرهما بحدوث مشاجرة عنيفة داخل غرفة الموسيقى. لا شيء يستحق القلق، على ما اظن. لا شك ان السيد بيدرو قادر على وضع حدّ لذلك بسرعة كبيرة.

- اذن من الافضل ان انسحب الآن. لا شك انها بحاجة اليّ.

قالت المرأة العجوز:

- لا ضرورة للذهاب بهذه السرعة. فالسيد فينغيلد لم يكن يريد ان تأتي زوجته معه، لكنها اصرّت لأصابتها بألم حاد في الرأس. . . تعالي واجلسي قربي، يا عزيزتي. هل تسمحين ان اكمل عملي؟ اني

اطرّز شرشف طاولة كهدية عرس وما زلت متأخرة.

جلست صوفيا قرب العجوز ولاحظت انها تحقق قطعة رائعة الجمال: تحفة تطريز فنية. تذكرت شيئاً ما وبعد لحظة تفكير سألتها صوفيا فجأة:

- هل انت المرأة التي طرزت شرشفاً رائعاً لمباراة التطريز العالمية الاخيرة؟ اسمك يلهمني بذلك.

- نعم. كيف يمكنك ان تكوني على علم بهذه الامور؟

- رأيت صورتك في جريدة مهنية. وتذكرت عندما نظرت الى التحفة التي بين يديك.

خلعت السيدة ماك كينلاي نظارتيها وقالت مبتسمة:

- هل تنتمين الى الجمعية؟ كنت اعتقد ان النساء الاعضاء متقدمات في السن.

- لست عضوة في الجمعية. لكن عمتي التي ربتني هي عضوة هناك. لذلك اعرف اموراً كثيرة حول هذا الموضوع... تدعى عمتي روزا ستيل.

صرخت العجوز في اندهاش:

- روزا ستيل! اي حظ لك! انها المطرزة الموهوبة والنابغة في عصرنا! ان «ماضي وحاضر ومستقبل فن التطريز» كتابي المفضل الذي لا يغادرني ابداً...

رأت كارلوس يتقدم منها ويضع كأساً على الطاولة الصغيرة قرب المقعد وقالت:

- شكراً، يا كارلوس.

وبينما كانت صوفيا ترد على اسئلة العجوز حول عمتها، كانت تعي بوضوح نظرات كارلوس الكثيفة تحدق فيها. كانت تخاف جداً

وهي تفكر بأنه سيقترح عليها بكل تأكيد ايصالها الى المخيم.

قالت العجوز لكارلوس:

- مسكين انت يا كارلوس، لا شك ان حديثنا يضجرك.

- لا ابداً، عمتي جاسيتنا. ليس هناك اي ضجر بالنظر الى امرأتين جميلتين.

راحت العجوز تضحك من اعماق قلبها وتقول:

- يا ايها المخادع المتألق! هذا الغزل الاسباني! الشاب الانكليزي لا يغازل بهذه اللياقة، اليس كذلك يا صوفيا؟

- انا أوافق معك. الشاب الانكليزي لا يعرف ملاطفة النساء او الغزل. لا شك ان ذلك عائد لكون الفتيات الانكليزيات عامة لا يقعن في فخ الكلمات الجميلة بل يعرفن تماماً ان يتحاشين اللطف الزائد، في غالب الاحيان.

وافقت معها العجوز قائلة:

- ان ما تقولينه صحيح، لكن لا يجب ان تقع المرأة في عكس ذلك، انا شخصياً لا اثق بالرجال غير القادرين ان ينطقوا بكلمة لطيفة للمرأة او ان يقدموا لها شيئاً ما يختلف عن الاشياء الضرورية. اذا اهداني ادوارد طناجر مثلاً، لرميتها من النافذة! لكن لحسن حظي، عندي زوج رائع، عنده موهبة انتقاء الهدايا التي تعجبني. انظري، ماذا اهداني بمناسبة عيد ميلادي الاخير... اليس هذا رائعاً؟

ومدت يدها نحو صوفيا لتريها كشتباناً من ذهب في علبة عاجية متناسقة.

ولما اعربت صوفيا عن رغبتها في الذهاب، اصرت السيدة ماك كينلاي ان ترافقها حتى البهو. وقالت لها:

- اخبري عمتك كم فرحت بكتابها. انها حقاً نابغة. كما اني انظر باعجاب للرسمة التي حيكتها لكرسي صغير والتي عرضتها بوضوح في الكتاب.

- قبل مغادرتي انكلترا اهدتني دثاراً من الحرير، وقبعته مطرزة باللؤلؤ.

- هل تحملينه معك؟

- نعم.

- آه، احب ان اراه. هل هذا ممكن؟

اقترح كارلوس في الحال:

- لماذا لا تتناولان طعام الغداء معاً في الغد فسأكون متغيباً طيلة النهار.

- غداً، اعمل وقت الغداء. لكن اذا كنت قادرة على المجيء الى المخيّم في الصباح، سيسرني ان اريك الدثار.

- اتفقنا، يا عزيزتي. في العاشرة، ما رأيك؟

- تماماً. الى اللقاء يا سيدتي. شكراً لهذه السهرة الرائعة.

ثم التفتت نحو كارلوس الذي همّ بالخروج معها:

- لا ضرورة لمرافقتي، يا سيد. فالقمر بدر والطرق مضاءة. لن اضيّع طريقي!

سأصل في اقل من دقيقتين.

اجابها كارلوس بسخرية:

- لكن، يا آنسة، تعلمت من اسلافي ان اصرّ في مرافقتك حتى بابك.

التفت نحو عمته وقبّل يدها قائلاً:

- لا شك انك ستنامين قبل عودتي، يا عمتي جاسيتنا. تصبحين

على خير ونوم سعيد.

ولما اصبح في الحديقة، عاد يقول:

- لماذا تدعينني الآن «سيد» وانت عانقتني منذ وقت غير بعيد؟

- لم اكن اعرف حينذاك انك ستصبح رب عملي.

- لكني لست برب عملك. مديرك هو بيدرو.

- لا تلعب بالكلمات. انت صاحب المخيّم.

وصلا امام الباب لكن، بدلا من ان يفتحه، كبس كارلوس على زر، فاستعاد سبيل الماء حياته وراحت المياه تتصاعد بعدة اتجاهات نحو السماء المنجمة قبل ان تسقط من جديد قطرات براقة.

- ليس كوني رب عملك يجعل تصرفك جافاً ومتوتراً معي، أليس ما اقوله صحيحاً؟ انما حديثي المشؤوم مع خوسيه غارسيا هو الذي ما يزال يحزّ في قلبك، اليس كذلك؟ ماذا كان حدث لو لم تسمعي ذلك؟

- لكانت النتيجة نفسها. لكنني، كنت غادرت الفندق متأخرة.

- كيف تتكهنين بالامور مسبقاً؟ لا، انتظري دقيقة واحدة! اسمعيني.

كادت ان تفتح الباب، لكنه بحركة سريعة وأكيدة، اتكأ عليه ليمنعها من الخروج. فقالت:

- لم يعد لي الخيار!

- لنفترض اننا تناولنا العشاء في الكارلتون، ثم رقصنا ساعة او ساعتين، وبعدها عدت بك الى الميرامار وبدأت. . . اغازلك، ماذا كنت ستفعلين؟ هل كنت غادرت الفندق؟ في الثانية بعد منتصف الليل؟ كان بامكانك ان تقولي «لا» بحزم وتغلقين باب غرفتك، من دون اي غضب. فكّري بالامر بصدق. لو لم تفهمي الاسبانية،

لكان هذا ما حصل اليس كذلك؟

اجابت بصوت خفيض:

ـ سأكون صريحة معك. ربما كانت الامور قد جرت كما تقول. لكني كنت غادرت الفندق في الصباح الباكر متمنية الا اراك ابداً في حياتي.

ـ صوفيا، ما بك، انت متأخرة قرناً بكامله. انا لست احمق وفهمت انك فتاة مهذبة وعاقلة. لكنك تعرفين انك جميلة ولا تقولي اني أول رجل تغزل بك...

ـ لم اقل هذا.

ـ لكنك تصرفت كأن ما أقوله صحيحاً.

ـ كنت اعتقد انك... لست كالآخرين.

ـ لماذا؟

ـ ذلك لأنه... آه، هذا صعب ان اقوله... الم تأمل يوماً ان يحبك احد من اجلك وليس من اجل ثروتك او جاذبيتك؟...

اختنق صوتها وتلألأت الدموع في عينيها وهمست قائلة:

ـ دعني من هذه الامور يا كارلوس انا متعبة وسأستيقظ باكراً في الغد.

فتح الباب وبصمت هبطا التلة. وبعد قليل، اضافت صوفيا:

ـ في كل حال، لم يحدث ما كنت تتوقعه. ولم استحسن ابداً انك اردت اضافتي الى حريمك، بعد يوم واحد من معرفتي بك.

ـ حريمي؟ لكن عمّ تتحدثين؟

اجابت بمرارة:

ـ مع العلم ان شخصاً قد نبهني هو السيدة هلينغتون بانك كالحمقاء، رفضت ان اصغي اليها. مهما يكن من امر ان تصرفك

تجاه النساء غير لائق.

ـ قبل حادثة الميرامار، كانت نظرتك مختلفة.

ـ لم اكن افهم نواياك. كنت تبدو... بعيني، كنت اعتقد...

ـ انك تحيرينني. لكن... كنت تعتقدين انني جاد...

ـ لا اعرف... كان ذلك محتملا...

في هذه اللحظة تعثرت قدماها واوشكت على السقوط لو لم يتمسك بها كارلوس. فجأة وجدت نفسها بين ذراعيه.

ـ سيظلّ هذا محتملا... ما دمت تعاملينني كأنني دون جوان خطير...

رفع وجهها ووراءه ينتصب البرج المضاء. كانت قربه الى درجة انها كانت تسمع دقات قلبه. وخلال لحظات قصيرة كانت متخذة بالذكريات التي حاكتها حول اميرها البطل، الى درجة انها فقدت دفاعها.

لكن لحظة الضعف هذه كانت قصيرة. فتقلصت فجأة وتخلصت من قبضته وقالت في جفاف:

ـ لم اعد اصدق شيئاً. لم انس بعد ملاحظة خوسيه غارسيا عن حبك للحرية. لا يهمك الا كوني فتاة جميلة وحسب. والباقي ترميه في البحر!

لم يرد كارلوس عليها، فتابعت تقول:

ـ ربما كنت اول فتاة ترفضك. ولهذا السبب ما زلت تتذكرني!

ادارت له ظهرها وابتعدت بخطى مستعجلة.

وفي اليوم التالي دخلت مارغريت الى الحمام وفوجئت بصوفيا تغسل اسنانها. تثاءبت وقالت:

ـ مرحباً، يا صوفيا! نهضت باكراً جداً. اعتقدت انك ستغطين في

النوم. متى عدت بالامس؟

ـ في حوالى منتصف الليل هل هدأت الامور في صالة الموسيقى؟

ـ كانت الامور على ما يرام قبل وصول بيدرو.

ـ هل كان رأسك يؤلمك حقاً؟

ـ كلا. اردت ان اكون لطيفة لأتيح لك امكانية التنزه مع كارلوس تحت ضوء القمر.

ـ لكن للأسف، هذا لم يحصل. ليس كارلوس من طراز الرجال الذين احبهم.

في العاشرة تماماً، وصلت السيدة ماك كينلاي مع ماري لويز التي قالت بحماس:

ـ آه، كم احب العمل هنا في المخيم والعيش في هذه المقصورة، سنرحل متى عاد عمي من المونيكار. وسنذهب الى غرانادا لرؤية عمي ادوارد وعمتي جيزيلدا.

وبينما كانت الفتاة الصغيرة تتنقل في المقصورة بفرح كانت العجوز تتمتع بالتطريز الذي حيكته روزا ستيل باللؤلؤ.

وبعد الظهر، كانت صوفيا في عطلة. فأمضت وقتها في البحر تتأمل الاسماك واضعة القناع الخاص على وجهها. ومن حين الى آخر، كانت تعود الى الشاطىء او الى الخانة لتحتسي عصير الليمون وتثرثر مع مايك.

قالت لها مارغريت لدى عودتها الى المخيم:

ـ جاء كارلوس ليودعك. فقلت له انك على الشاطىء هل رأيته؟

ـ كلا.

وبالرغم من ارتياحها لرحيله، شعرت صوفيا بتوتر شديد طيلة السهرة.

بعد العشاء كتبت رسالة الى عمتها واخبرتها عن السيدة ماك كينلاي من دون ان تخبرها عن كارلوس. ولما جلست في فراشها راحت تستمتع بقراءة كتاب واشنطن ايرفينغ. ففي بادىء الامر كانت تفضل قراءة الجريدة المحلية والمجلات الاسبانية لتحسّن لغتها وتتعلم المفردات المصطلحة.

كانت تقرأ قصة «اسطورة الاميرات الثلاث»، المكتوبة قبل مئة وخمسين سنة. وذكّرتها القصة بما يحدث معها مع كارلوس ولسينغهام. الاميرات الثلاث وقعن بحب ثلاثة سجناء حرب وعشن التجارب التي تشبه ما تعاني منه اليوم صوفيا. كتب المؤلف:

ـ الصعوبات المعاشة كانت تزيد من نشوة العلاقة وتقوي الشغف الذي حلمت به بشكل فريد، ذلك لأن الحب كان يعيش باستهتار داخل العوائق والحواجز ويتكيّف مع الارض القاحلة.

اليست هذه قصة مغامرتها؟ قالت ذلك لنفسها وتنهدت. الآ تشبه مشاعرها تجاه كارلوس العش المعلق بالصخور الذي يتعرض لكل انواع العواصف والامواج والريح؟ وحتى حادث الميرامار لم ينجح في اقتلاعه؟ لا شك انها توصلت الى خنق اهتمام كارلوس العابر بها. لكنها لم تتوصل بعد ان تطفىء الاحاسيس التي يلهمها اياها. كان يجب ان تفرح لرحيله وعدم امكانية رؤيته في المستقبل... لكنها حزينة حتى البكاء...

٣ - حول مفهوم السعادة

وفي صباح اليوم التالي، وصلتها بطاقة من كاتي ديلهام تطمئنها فيها عن فرحها بمركز عملها في كوستا برافا، ورسالة طويلة من جدها، مليئة بالنكات المزاحية الرهيبة!

وخلال فترة الغداء، ذهب بيدرو وزوجته الى حوض السباحة، وبقيت صوفيا في مكتب الاستقبال. بات المخيّم مكتظا وكانت مهمتها ان تدل الزائرين الجدد الى مخيم آخر في الجوار.

وبينما كانت صوفيا تنتهي من كتابة رسالتها التي بدأتها في الامس، سمعت شخصا يناديها بالاسبانية. فرفعت نظرها ورأت رجلا ملتحيا يبتسم لها، وعلى ذراعه قيثارة، حافي القدمين، يرتدي قميصاً مطرزة وسروال جينز واصابع يده ممتلئة بالخواتم. كان يشبه الهبيين، لكنه

كان يبدو نظيفاً.

فقبل ان يتسنى لها الكلام، قال باللغة الفرنسية:

- انت تحيرينني، ياحلوة! ما هي جنسيتك؟ خليط مثلي، اليس كذلك؟

- انا انكليزية واتكلم الفرنسية قليلاً.

- انا أتكلم الانكليزية ايضاً. فلا سبب اذن في الآ نتفاهم. ادعى ساشا لوسيان. جئت لأكمل طاقم الموظفين!

- آه نعم، نحن في انتظارك.

منظره ربما ازعج سكان المخيم وسينظرون اليه باستهتار! لكن ما دام بيدرو هو الذي وظفه، فلا شك انه صالح للعمل!

- اسمي صوفيا لينغوود. اهلا وسهلا بك الى برج الموورز. هل جئت من بعيد؟ هل انت جائع، عطشان...؟

- لن ارفض كأس عصير.

وبسرعة فتحت صوفيا البرّاد الصغير قربها واخرجت منه زجاجتي عصير وكأسين.

- جئت من غرناطة. هل تعرفينها؟

- لا. لكنني انوي زيارتها. كيف تجد مدينة الحمراء، هل اعجبتك؟

- لم ازرها بعد. لا احب الاماكن المكتظة بالسيّاح. غير ان الطرقات الجبلية رائعة حقاً. حملني الى هنا سائق شاحنة. فغنينا وشربنا ورقصنا وأكلنا والكوريتزوه. هل تحبين الكوريتزو؟

- نعم كثيرا.

فتح حقيبته الصغيرة واخرج منها قطعة لحم مقدد وسكيناً صغيرة قطع بها شرحة صغيرة وقدمها الى الفتاة وهي ما تزال على

وخلال ايام معدودة، اخبرها ساشا اموراً كثيرة عن اسبانيا. وبدلا من ان يأخذ طريق الساحل، كما فعلت هي، اجتاز وسط البلاد. كانت محطاته فنادق صغيرة وحانات رخيصة. رأى اسبانيا الحقيقية خارج المناطق المخصصة للسياح والاسبانيين الذي يمضون الاجازات. وبعد سماعها هذا السرد الوصفي للقرى الجبلية والوديان المتوحشة، شعرت برغبة ان تقوم بهذه الجولة المرّة المقبلة.

وبالرغم من قمصانه المزركشة والمطرزة بجميع الالوان، ورغم كونه حافي القدمين واصابع يديه ممتلئة بالخواتم، اصبح ساشا معروفاً ومحبوباً من قبل سكان المخيم، ما عدا مايك، صاحب الحانة الذي كان يكرهه ويناديه «الخنفوس المشؤوم».

قالت له صوفيا عندما سمعت مايك يطلق على ساشا هذا اللقب:

ـ شخصياً، انا احبه واحترمه. انه لطيف، نظيف ومرح بصورة دائمة. ماذا عندك ضده؟

ـ اكره هذا النوع من الرجال الهامشيين الذين يتحدون العادي والمألوف ويسافرون في اوروبا مقنعين بصورة حمقاء، فيثير الاشمئزاز في نفوس المارة حيثما التقوه.

ـ ساشا يعمل مثلنا ليعيش من عرق جبينه. صحيح انه يرتدي الملابس الغربية. لكن شعره قصير ونظيف.

وفي احد الايام اقترح ساشا على صوفيا ان يصطحبها للعشاء، في المونبكار، في مطعم مشهور بمطبخه الرائع.

فقالت مارغريت باستغراب:

ـ آه، ارى انه يحب الفتيات! كدت اتساءل.. انه انسان غريب.. هل ترين منه اي انجذاب؟

ـ لا اعرف. للحقيقة، لم افكر بالامر. اراه لطيفاً وانساناً عادياً.

ـ هل تعرفين عنه شيئاً؟ عندما طرحت عليه اسئلة عن عائلته، اخبرني قصصاً تشيّب شعر الرأس. ربما كان ظاهرياً يسخر مني.

ـ لا شك انه يأخذ وقته في الحياة ما دام لا يزال شاباً. ربما انحدر من عائلة رفيعة الشأن. وبعد سنة او سنتين، سيبيع قيثارته ويصبح رجلا محترماً مثل والده.

ـ تحيرينني احياناً... كارلوس لا يعجبك ولم تلاحظي بأن ساشا شاب جميل. ماذا تريدين؟ لا تقولي ان مايك هو من طرازك.

ـ يا الهي، لا لا اشعر برغبة الوقوع في الحب بالوقت الحاضر. هذا كل ما كان في الامر. هدفي الّا اتزوج قبل سن الخامسة والعشرين.

في اعماقها كانت تقول، لو كان كارلوس ذلك الرجل الذي طالما حلمت به، لتزوجته من دون تردد...

وصل ساشا الى خيمة صوفيا ليأخذها الى العشاء. كان يرتدي احذية رياضية وسروالا ابيض وسترة من المخمل الازرق المرقّط بالبرتقالي والمطرز بالذهب اشتراها كما يقول من سوق البالة، في باريس.

قالت صوفيا متعجبة:

ـ حسب رأيي، ان سترتك تحفة يوغوسلافية الصنع تعود الى منتصف القرن الماضي.

وهي ايضا اختارت ملابس غريبة لتندمج مع جوّه. فارتدت سروالاً ازرق وقميصاً برتقاليه وعقدت على خصرها منديلا طويلا نقشت عليه الرسوم الفارسية.

وبعد ان تنزها في المدينة وفي الشوارع الضيقة والمتعرجة، توجها الى مطعم يدعى «غاسكونية» حيث حيّت صوفيا الزبائن، كما فعل كارلوس في مطعم برشلونة

الواقع على المرفأ. وبدأ الناس يعبرون عن ذهولهم واندهاشهم من سترة ساشا الملونة.

فجأة سألها بعد ان تفحص ملامح وجهها:

- تبدين حزينة، يا صوفيا، ماذا حدث؟

- اني اموت جوعاً، هذا كل ما في الامر! وانتظر بفارغ الصبر شرحات اللحم الطرية...

وبعد هذه السهرة، اصبحا صديقين حميمين يخرجان غالباً معاً يكتشفان صالات الرقص والحانات الصغيرة اللطيفة حيث كانت تقدم لهما الوجبات المحلية. احياناً كان يناديها «ياحلوتي». لكن الى هذا الحد تصل علاقتهما. كان يعاملها مثل اخت له. كان يعشق الرقص ولا يرقص الا الرقصات الحماسية الايقاعية الصاخبة. لم يأخذها بين ذراعيه، حتى ولو كان وحده معها. لذلك استمرّت صوفيا في الخروج معه لأنه يريحها من الاضطراب الذي حدث لها بعد مغامرتها مع كارلوس.

ويوم الاحد بعد الظهر، عندما يعج شاطىء البحر بالناس، توجهت صوفيا الى البرج لتسبح في الحوض هناك. حلّ مكانها ساشا. اما بيدرو ومارغريت فقد ذهبا الى مدينة مجاورة لزيارة اصدقاء لهما حيث سيقضيان الليل.

وبعد ان سبحت صوفيا بفرح، راحت تجفف جسمها تحت الشمس ثم جلست على المقعد الهزاز في الظل، وراحت تقرأ قصة «اسطورة التمثالين السرّيين».

كانت تقلب صفحة في الكتاب عندما احست بشيء يتحرك في الجهة الثانية للحوض. ثم سمعت شخصاً يغطس في الماء. انه كارلوس. ارتعبت قليلا وراح قلبها يخفق بقوة لكن، عندما خرج

كارلوس من الحوض، راحت تحاول اخفاء اضطرابها.

- مرحباً، ياصوفيا. كيف حالك؟

- جيد، شكراً. لم تعلمنا الخادمة بمجيئك. والآ لما...

- لم يكن الامر ضروريا. جئت هذه المرة وحدي، وبامكانك استعمال الحوض متى شئت.

ابتعد بخطى عريضة ليجلب منشفته. للمرّة الاولى تراه في بزة السباحة. كان جميلا مثل تمثال يوناني ولا يوجد في جسمه اي علامة للشحم او الدهن. اختفى داخل المنزل وهو ينشف شعره. ما العمل؟ الانسحاب بهدوء؟ ام البقاء والتصرف بلامبالاة؟

وقبل ان تصل الى القرار، ظهر كارلوس من جديد مرتدياً سروالا قصيراً ابيض اللون وحاملا ابريقاً وكأسين.

وبسرعة وضعت صوفيا قرب المقعد الهزاز حقيبة البحر وقبعتها وآلة التصوير، كي تمنع كارلوس من الجلوس قربها. كانت تنوي ان تأخذ بعض الصوّر للبرج لترسلها الى جدّها الذي يحب التاريخ وخاصة قصة غزو العرب لاسبانيا والآثار التي تركوها فيها.

تصرّف كارلوس كأنه لم يلاحظ شيئاً فسألها وهو يجلس على الطرف الآخر للمقعد:

- كيف هي الامور داخل المخيم؟

- تماماً. المخيّم مليء. معظم زواره سيبقون هنا مدة اسبوعين او ثلاثة. وهناك من يتوقف ليلة قبل اكمال رحلته الى مراكش. اشعر بالاندهاش المستمر لرؤية الناس يقضون جزءاً كبيرا من عطلتهم على الطرق.

- نعم، انا من رأيك. فالرحلات المنظمة بالطائرة ليست اغلى ثمناً بل هي اقل تعباً.

قدّم لها كوباً من عصير البرتقال المثلج وشاهد الكتاب الذي كانت تقرأ فيه عندما فاجأها:
ـ ماذا تقرأين؟
ـ مجموعة قصص عن الحمراء.
تناول الكتاب ونظر اليه باعتناء وبعد قليل سألها:
ـ من اين لك هذا الكتاب؟
ـ انه هدية.
وضع الكتاب على الوسائد ونهض:
ـ انتظريني ساعود في الحال.
وتساءلت صوفيا اذا كان كارلوس يحب قراءة الكتب القديمة وتذكرت اليوم الذي التقت به في المكتبة التي تبيع الكتب النادرة. لماذا لم تفكر بالامر من قبل؟
منذ اللقاء الاول الخاطف حتى اللقاء الثاني في برشلونة، لم تفكر صوفيا فيه الا انه رجل اعمال كبير. هل من الممكن ان يكون ايضا رجل ادب وفن؟
عاد كارلوس حاملا كتاباً ضخماً وضعه امام الفتاة وقال:
ـ الكتاب نفسه، لكن الغلاف مختلف.
رفعت صوفيا الكتاب السميك المجّلد بجلد مغربي ازرق قاتم، حفر في وسطه العنوان بالاحرف المذهبة. فسألته صوفيا:
ـ هل الكتاب يخصك؟
ـ لا، لكنه موجود لدى العائلة من زمان بعيد. ما رأيك لو نتبادل الكتابين.
ـ لكن الكتاب يخص ابن عمك. الا يرى مانعاً ان تبّدله بكتابي؟ فغلاف كتابي ليس جميلا.

ـ آه، لا يهمه الامر. في كل حال سأعطيه كتابي...
ـ تعني انك تريد كتابي لك؟ لكن لماذا؟
فكرّ لحظة وانتظرت صوفيا الرد وقلبها يخفق بجنون:
ـ فقط من اجل ان اتذكّر هذا الصيف في كوستا ديل سول.
ـ انه هدية بمناسبة عيد ميلادي ولا مجال ان استغني عنه. لا داعي للقلق. لن اتركه في الشمس ولن اضعه في حقيبة البحر مع حاجياتي المبللة. لكن...
توقفت فجأة عن الكلام. اذا انفتح باب الحديقة دخل ساشا قائلا:
ـ صوفيا، اتصلت مارغريت لتقول ان حادث سيارة قد حصل لها وبيدرو دخل المستشفى ولا نعرف اذا كان وضعه خطيراً. لكن ما عرفته انه سيبقى في المستشفى بعض الوقت.
ـ يا الهي. ومارغريت؟
ـ لم تصب بشيء. فقط الصدمة كانت قوية عليها.
فجأة ادركت صوفيا ان الرجلين لا يعرفان بعضهما البعض، فقامت بمهمة التعارف. ماذا ستكون ردة فعل كارلوس تجاه العقد الصفدي المزركش الذي يضعه ساشا فوق بزته المعرقة؟
لكن كارلوس لم يعط اهمية لشكل الرجل بل كان قلقاً لما حدث. فسأله:
ـ هل اتصلت بك مارغريت من المستشفى؟ هل قالت لك كيف بامكاننا اللحاق بها؟
هز رأسه قائلا:
ـ كلا. ستتصل مرّة ثانية عندما تحصل على التفاصيل المحددة. ليست وحدها بل مع اصدقاء لها.

اضافت صوفيا قائلة:

ـ كان عليهما ان يقضيا الليلة عند عائلة هولندية.

قال كارلوس:

ـ ساوافيها لأرى ما اذا كانت بحاجة لشيء...

ـ لا تنسى كتابك.

ابتعد قائلا:

ـ اذا اتصلت مارغريت مرّة ثانية، قولي لها اني آت اليها.

وبينما كانت صوفيا تهبط التلّة مع ساشا قالت له:

ـ على فكرة، كارلوس ولسينغهام هو صاحب المخيّم. ومن حظ مارغريت انه هنا. ربما اضطرّ ان يجد شخصاً يحل مكان بيدرو خلال مكوثه في المستشفى.

كانت صوفيا في مقصورتها عندما سمعت طرقاً ناعماً على الباب. وعرفت من منظار الباب ان الطارق هو كارلوس بنفسه ففتحت له. قال لها:

ـ عظيم انك ما زلت مستيقظه. الحانة لن تقفل قبل منتصف الليل. تعالي لنأخذ فنجان قهوة وسأخبرك ما حدث... هل تعرفين اين يكون ساشا في مثل هذا الوقت؟

ـ في الحانة، من دون شك. لقد اقفلنا مكتب الاستقبال منذ دقائق معدودة.

لكن ساشا لم يكن في الحانة، فاقترحت صوفيا انه من الممكن ان يكون في مقصورته. فأجابها كارلوس:

ـ آه، لا يهم. سنعلمه بالامر غداً. ماذا تأخذين؟ قهوة؟ عصير؟

ـ قهوة من فضلك.

لم يكن في الحانة الا شاب وفتاة، من الجنسية الالمانية. قال كارلوس:

ـ بيدرو بحاجة الى بضعة اسابيع كي يصبح بامكانه الوقوف على قدميه. اصيب بكسور في ذراعه واضلاعه وبجروح خبيثة في وجهه وساقيه. السيارة صالحة للرمي. وباعجوبة نجت مارغريت ولم يحدث لها شيء. لكنها ما زالت تحت تأثير الصدمة، اذ اعتقدت ان زوجها قد مات. اما سائق السيارة الاخرى فمات للحال... ومن حسن الحظ كانت زوجته هادئة الاعصاب، فساعدت مارغريت ان تخرج من حالتها المضطربة.

ـ كيف وقع الحادث؟

ـ كانت السيارة الاخرى تسير بسرعة جنونية. والظاهر ان الروالييت تعطل، ففقد السائق توازن سيارته. رأى بيدرو السيارة تأتي صوبه، وقام بجهد كبير ليتحاشى الارتطام المباشر. هناك محكمة وانا اعرف محامياً مشهوراً سيدافع عنها.

جرع قهوته بتوتر من شدة التعب والارهاق. فسألته صوفيا:

ـ هل تعشيت؟

ـ كلا.

ـ بما ان الخادمة لم تعرف بمجيئك، فلا شك انها لم تحضر لك العشاء...

ـ احضرت بيضاً وفطيرة بامكاني ان احضر لنفسي عجة.

ابتسم واضاف:

ـ هذا لطف منك ان تهتمي براحتي.

اخفضت عينيها، ثم قالت:

ـ هل بامكانك ان تجد شخصاً يحل مكان بيدرو ومارغريت؟

ساشا وانا بامكاننا تدبير الامور لأيام قليلة، لكننا سنكون بحاجة لبديل ليستمّر العمل كما يجب.

ـ انوي ان احلّ مكان بيدرو بنفسي. ومن يكون البديل مكان مارغريت، سنرى. . .

قالت بدهشة واستغراب:

ـ انت! لكن. . . لا شك ان اعمالك كثيرة وبحاجة لوجودك! اعتقدت انك تملك سلسلة فنادق وان. . .

ـ نعم، لكن حضوري ليس ضرورياً في الموسم السياحي. الحاجة الماسة ستكون خارج الموسم عندما يطلب مني تغيير وتوسيع المشروع. . . وتنظيمه. . . في كل حال، كنت انوي قضاء هذا الشهر كله في البرج. سأستفيد من عطلتي للعمل داخل المخيّم واقامة دراسة حيةً له.

شعرت صوفيا بحيرة وارتباك. الالمانيان قد غادرا الحانة. خادم المقهى بدأ بتوضيب المكان ويستعد للأقفال انهت صوفيا قهوتها ونهضت عن الكرسي وقالت:

ـ شكراً لاعلامي بالامر. انا فرحة لأن المسألة ليست خطرة بالنسبة الى بيدرو.

نهض بدوره وقال:

ـ مساء الخير، يا صوفيا.

ـ مساء الخير.

دخلت مقصورتها وعقلها مبلبل حزين. لماذا قرر كارلوس ان يقضي شهراً بكامله في البرج؟ هل قرر ان يقهرها بعد ان جرحته في صميم داخله بحديثها الاخير معه؟ شعرت بالوهن لمجرّد كونها ستقاوم رجلا تعتبره جذاباً ومهدداً لسلامة تفكيرها. هل ستتغلب

مبادئها على انفعالاتها الصادرة من صميم القلب؟

وكلما فكرت بالامر، كلما اقتنعت ان لكارلوس حجة مقنعة كي يمضي شهر آب (اغسطس) في كوستا ديل سول بالذات. صحيح ان برج المووزز افضل من الفنادق الفاخرة وحوض السباحة يعزله عن الاختلاط بالسياح، لكن المونيكار يؤمها الطلاب المفلسون والعائلات المتواضعة ذات الدخل المحدود بينما في المدن الاخرى المستوى ارقى كثيراً.

لم تنم جيداً تلك الليلة. وفي اليوم التالي، كانت الساعة الخامسة والنصف عندما توجهت الى الشاطىء. لم يكن هناك الاّ صبي في العاشرة من عمره يصطاد السمك عن الصخور المتدلية من اسفل البرج، وفي هذه الساعة المبكرة كان الخليج هادئاً. لا صوت مذياع ولا ضجيج محركات يحطم الصمت. وما اروع ان يتقدم المرء بهدوء وبطء في الماء الفاترة التي تتشقق كحفيف الحرير.

وبعد نصف ساعة من السباحة لاحظت صوفيا انها لم تعد وحدها مع الصيّاد الصغير. رأت كارلوس في بزة السباحة ومنشفة على كتفه يثرثر مع الصبي. كانت تنظر اليهما من بعيد وهي تسبح، الى ان نظر كارلوس باتجاهها وراح يلوّح لها بيده.

حينئذ ابتعد عن الصياد وغطس في الماء. كان يسبح بسهولة وحرية، مقترباً منها، وفكرت في الحال ان تعود بأسرع ما يمكن الى الشاطىء، ذلك لأنه من الصعب عليها مقاومة رجل جذاب، وهي عائمة فوق الماء ولا شيء يربطها بالارض. لكن الوقت لم يكن معها. فلن يجد كارلوس صعوبة في ان يسد عليها الطريق.

ولدهشتها، توقف قبل ان يصل اليها وراح يسبح مكانه:

ـ صباح الخير. ما كان عليك ان تسبحي وحدك. ربما اصابك

تشنج.

ـ لم اكن وحدي. الم تر الصّياد الصغير؟

ـ ليس من الضروري ان يتقن السباحة.

ـ عامة، الصيادون يتقنون السباحة.

ابتعدت متوجهة نحو احد الزوارق الصغيرة الراسية على بعد ٣٠٠ متر من الشاطىء. فلحق بها كارلوس ثم تجاوزها. ولما وصل قرب الزورق صعد اليه ومدّ لها يده. فقالت صوفيا وهي تهز رأسها.

ـ لا. عليّ ان اعود الآن. عندي ثياب اريد غسلها. افضل استعمال غرفة الغسيل عندما لا يكون بها احد.

واكملت السباحة نحو الشاطىء. كانت ما تزال في منتصف الطريق عندما سمعت قفزة من الزورق وبلحظة كان قربها. وقال:

ـ هل تجدين ان الادوات الصحية داخل المخيّم كافية؟ هل لديك اقتراحات للتحسين؟

ـ كلا. كل شيء عظيم. في البداية حصلت حادثة طريفة فدخلت احدى الفرنسيات الحمامات المخصصة للرجال باحثة عن منشب للتيار الكهربائي لتتمكن من استعمال آلة تنشيف الشعر الكهربائية. في الحمامات النسائية لا يوجد منشب للتيار الكهربائي. فالمهندس نسي ان النساء تستعمل ايضا الآلات الكهربائية التي يستعملها الرجال لكن بيدرو هدأ روع الجميع واقام مناشب اضافية بسرعة وبساطة!

ـ هذا تفصيل مهم لا يجب ان ننساه في المستقبل. حسب ما رأيت ضمن جولاتي في العالم الاوربي. يتراءى لي ان الالمان اهمّ من اهتم بالادوات الصحية وحسّن قيمتها واستعمالها.

ولما وصلا الى باب الحديقة، سألها كارلوس:

ـ هل بامكاني ان اقدم لك القهوة؟

ـ كلا، شكراً يا كارلوس. الى اللقاء.

ـ صوفيا!

توقفت وقالت:

ـ نعم؟

ـ اسمعيني. يجب ان تكون الامور واضحة بيننا. ربما تخشين ان استفيد من علاقات العمل الحالية للاستمرار في ملاحقتك. ما دمت انا المسؤول في هذا المخيم فبامكانك ان تنامي على حرير من دون قلق.

أدار ظهره ورحل.

بعد اسبوع ذهبت صوفيا لرؤية بيدرو ومارغريت. وبعد ان اجتازت المونيكار، سلكت طريقاً متعرجة بين الوديان القاحلة والتلال الصخرية الحمراء، حتى وصلت الى نيرخا. ثم، عادت الطريق المسطحة. وعلى جانبي الطريق، كانت الأبنية العالية ترتفع كالطحلب لتحل مكان بيوت صيادي السمك حيث القرى ما تزال شبه نائية.

كانت مارغريت تقطن فندقاً من الدرجة الأولى في جناح صغير خاص. فقالت لصوفيا:

ـ اصرّ كارلوس ان اسكن هنا، على ان يدفع هو جميع التكاليف.

ـ انه ثري وهذه الحركة الطريفة لن تفقره.

ـ انت غير عادلة، يا صوفيا. عندما عرف بالحادث جاء لتوه. لا اعرف ما كان سيحل بي من دونه، في هذا البلد الذي اجهل تقاليده وعاداته. انه لطيف اكثر مما تتصورين، وهو دائماً على استعداد لمساعدة الغير. لما وصل كانت حالتي يرثى لها. لم اكن اكف عن

البكاء. فأخذ يدي وكلمني بلطف وساعدني تدريجياً كي اتخلص من الصدمة القوية.

وبينما كانت تريها الشقة الفخمة، سألتها:

ـ كيف تجدين كارلوس وهو مدير المخيّم؟ لقد فوجئت كثيراً بقراره في ان يحل مكان بيدرو.

ـ انه يثرثر مع المخيّمين ولا يفوته شيء. وبخّ مانولا صاحب الدكان. جاءت امرأة اجنبية تشتكيه لأنه باعها خبزاً قديماً وبطيخاً ثمنه مرتفع الى درجة غير عادية.

ـ وهل وبخك انت، او ساشا؟

ـ الى الآن، لا. كما ان رأي كارلوس بساشا تختلف عن رأي مايك به. يلعبان معاً احياناً الشطرنج، بعد الظهر، عندما تهدأ الاعمال.

ـ الم يدعُك كارلوس الى العشاء في البرج؟

ـ كلا. ما هي اخبار بيدرو؟

بعد الغداء قامتا بزيارة الجريح الذي يقوم بكل ما بوسعه ليبدو مرحاً ومسروراً. لكنه ما زال في حالة سيئة ويتألم كثيراً.

في المساء، تناولتا العشاء في مطعم مشهور بالسمك الطازج. تذوقتا شورباء السمك واكلتا السلطان ابراهيم المقلي. وامضت صوفيا الليلة مع مارغريت، في السرير الثاني. وفي اليوم التالي، ذهبت صوفيا وحدها لتقوم بنزهة سياحية كانت تريد القلاع والآثار. وترسل لجدها العديد من الصور، ففي احدى رسائله الاخيرة، نصحها جدّها ان تزور «كاتدرائية عصر النهضة».

كتب يقول: «خلال الحرب الاهلية، اسكن الجمهوريون العائلات الفقيرة في الكنائس. فكان النساء يطبخن على المذابح

ويستعملن [illegible] كحطب للموقد. ويتساءل المؤرخون كيف نجت منحوتات بيدرو دي فينا من الكارثة. لا تنسي ان تزوريها.

وصلت صوفيا الى المونيكار في ساعة متأخرة من بعد الظهر. وفي منتصف الطريق بين المدينة الصغيرة والبرج، شاهدت سيارة كارلوس متوقفة تحت شجرة على طرف الطريق. وشاهدت الرجل الاسباني يغيّر عجلة سيارة صاحبتها فتاة سمراء. كانت ترتدي سروالاً ضيقاً وتنظر الى كارلوس بأغراء وهي تثرثر معه بحماس.

خففت صوفيا سيرها واذا بالسيارة التي تتبعها تكبح فراملها كي لا تصطدم بها ثم تجتازها. وراح السائق يزمر بشدة ويصرخ من نافذته بالشتائم. . .

سمع كارلوس هذه الضجة، فنظر الى الوراء، لكن صوفيا اسرعت سيرها من دون ان تنظر نحوه.

وبعد قليل عاد كارلوس ليراها تتحدث مع ساشا في مكتب الاستقبال. ولشدة دهشتها، لم ينوّه بشيء عن الحادثة واكتفى بالسؤال عن اخبار بيدرو.

وبعد ظهر اليوم التالي، كانت في مكتب الاستقبال عندما رأت على المكتب العدد الاخير لمجلة تدعى: «مجلة هواة الكتب»، التي تصدر كل ثلاثة اشهر ويشترك فيها جدها.

فوجئت صوفيا وفرحت وراحت تقرأ موضوعاً عن التغليف في انكلترا عندما سمعت كارلوس يسألها:

ـ الا تعتقدين ان هذا الكتاب اكثر اهمية؟

وأراها كتاباً ضخماً كان قد وجده على طريق البحر.

لكن صوفيا مدّت له يدها حاملة المجلة وقالت:

- انها لك، على ما أظن.
- نعم، انها مجلة قاسية وصعبة، تخص فقط الهواة المدمنين.
شعرت باستياء لأنها لم تنه قراءة الموضوع، ولهذا التلميح الساخر وقالت:
- هل تعني انني بحاجة الى قاموس لأترجم كل الكلمات الصعبة؟
نظر اليها باستغراب وقال:
- ماذا، يا صوفيا هل تسخرين مني؟ هل انت هاوية جدية؟
- جدي هاو ومحترف وعنده مجموعة نادرة من الكتب القديمة.
- هو الذي اهداك كتاب واشنطن ايرفينغ؟
- نعم.
قال بجفاف:
- من حسن حظي انني لم احاول اقناعك بأن هذا الكتاب بالذات ليست له قيمة!
- لكنك اظهرت عن صدق ودقة. وهذا لا ينطبق على جميع من يتقن هواية جمع الكتب النادرة. لو كنت ترغب في الحصول على هذا الكتاب مهما كلف الامر اما كانت اختلفت وجهة نظرك؟ هذا ما احب معرفته. . . اي حقل يثير اهتمامك؟

لم يتسن له الوقت للرد عليها، اذ توقفت سيارة وسأل سائقها اذا كان هناك مكان شاغر داخل المخيم. وبينما كانت صوفيا تهتم بالرواد الجدد، وعدت نفسها الا تفتح هذا الموضوع بعد الآن. لماذا اراد ان يكون كارلوس من بين هواة الكتب القديمة والنادرة؟ لو لم يكن ثرياً ولو كانت نظرته تجاه المرأة مختلفة، لكانت امضت صيفاً رائعاً. . .

وبعد بضعة أيام، سألها مايك صاحب الخانة:

- عندما ذهبت الى المستشفى منذ أسبوع، هل توقفت في نيرخا لرؤية الكهوف؟
- كلا. لا تعني لي الشيء الكثير.
- يجب رؤيتها. الجنرال فرانكو بذاته قام بزيارتها.
- آه صحيح؟ لا يمكنني الذهاب بعد ظهر اليوم لأن سيارتي في الصيانة. ربما ازورها في الاسبوع المقبل.
- انا ذاهب اليوم. لماذا لا تأتين معي؟ بامكانك زيارة الكهوف بينما انهي بعض الاعمال المعلقة هناك.

ترددت صوفيا لأنها لم تكن ترغب قضاء الساعات المعدودة من عطلتها الصغيرة برفقة مايك، الذي يجعلها تشعر بانزعاج من افكاره الضيقة وذهنه المحدود.

- هذا لطف منك، يا مايك، لكن. . .
- يسرني ان اصطحبك معي. سأمرّ بك في الرابعة ما رأيك؟ هل تأتين معي؟

بعد قليل. كانت تقوم بجولة حول المخيم لتتأكد من ان كل شيء على ما يرام، عندما لمحها كارلوس وقال:
- صوفيا، افضل لو ترتدين الفستان خلال ساعات العمل.
فوجئت الفتاة وقالت:
- كيف؟ لكن مارغريت ترتدي دائماً بزة السباحة. كما هي الحال مع الجميع هنا.
- المخيّمون جاؤوا الى هنا للمرح واللهو. وبينهم نساء في سن متقدمة. هل تعتقدين انهن يفرحن عندما ينظر ازواجهن الى جمال جسمك المشوق؟
شعرت بغضب كبير وارغمت نفسها على الرد عليه بلهجة

خفيفة:

- هل سترغم ساشا على ارتداء قميصه، بحجة ان الرجال لا يفرحون لرؤية زوجاتهن ينظرن الى سحر جسمه المشوق؟

توقف كارلوس امامها وراح يرمقها بنظرات حادة ثم قال:

- لقد وعدتك انني لن اتجاوز معك حدود علاقات العمل. هل انا بحاجة ان اذكرك باستمرار ان ما بيننا علاقات عمل فقط لا غير؟ اريد ان تنفذي اوامري في الحال.

تثاءبت وشعرت بانزعاج لهذه القساوة المفاجئة وقالت:

- انا.. انا آسفة. سأنفذ اوامرك. وسأذهب لتوي لأغير ملابسي.

التقى بها ساشا بعد قليل وكانت ترتدي سروالا ابيض وقميصاً كحلياً فقال لها:

- هل انت ذاهبة الى المدينة؟

- امرني كارلوس الاّ ارتدي بزة السباحة خلال ساعات العمل.

- الظاهر ان هذا الامر لم يسرّك. لو كنت مكانك لاعتبرت هذا مديحاً. لا شك انك ببزتك تجعلينه يشرد عن التركيز في عمله.

- لا، ليس الامر متعلقاً به. لكن بالأزواج الناضجين، كيف بامكان المرء ان يفكر بمثل هذه الامور الساذجة؟

- لا تبالي بالأمر، يا صوفيا. ماذا تفعلين الآن؟

- دعاني مايك ان ارافقه الى نيرخا، لكنني ما ازال مترددة.

- لمَ لا تذهبين اذن؟ لا اعتقد ان مايك سيكون وقحاً معك ويحاول مغازلتك. في كل حال انت من يعرف الدفاع عن مثل هذه المواقف. لكن كوني حذرة.

- لا اخاف مجابهته. لكنه يزعجني بثرثرته اللامتناهية، خاصة عندما يفتح لي قلبه!

وما ان صعدت الى سيارة مايك حتى سألته:

- منْ يحلّ مكانك؟

- يحلّ مكاني شاب اسباني لا يتكلم اي لغة أجنبية. لكن الزبائن لا يجدون صعوبة في الحصول على ما يريدونه حتى ولو اضطروا الى استعمال الاشارات... آه، من قال، منذ ٥ سنوات انه سيأتي يوم واكون مسؤولا عن حانة في الهواء الطلق. في اسبانيا!

- ماذا كنت تفعل حينذاك؟

وبدأ بسلسلة احاديث شارحاً لها انه بدأ عمله كعامل مصرف، وظلّ يتكلم باستطراد ممل حتى وصلا الى كهوف نيرخا. وادركت صوفيا ان رفيقها يخترع قصصه التي لا أساس للصحة فيها. فشعرت بتوتر كبير وقالت:

- اسمع، يا مايك، لا اعرف كم من الوقت سأستغرق في الزيارة لكن سأستقل الباص للعودة.

- لا، لا، لن تعودي بالباص. الحرّ شديد. سأمر عليك بعد ساعة.

كانت كهوف نيرخا مدهشة ومثيرة جداً. في المدخل متحف صغير للمجوهرات والحلى القديمة، وسلم يهبط الى غرفة الكوارث والنكبات الارضية. انها حجرة طبيعية ضخمة، واسعة بحجم كاتدرائية، حيث كتلة الحجارة والاعمدة التي تعود الى ثلاثة آلاف سنة من النسيان.

عندما خرجت صوفيا الى الهواء الطلق، بقي لها عشر دقائق قبل وصول مايك. اشترت البطاقات التذكارية وجلست في شرفة مقهى

تحتسي كوب ليموناضة مثلجة.

وبعد ساعات كانت تتسكع يائسة في نيرخا، على طول المتنزه الذي يدعى «شرفة أوروبا». تحده من كل جوانبه اشجار النخيل العالية. كانت تنتظر وصول الباص، عندما توقفت سيارة بيضاء قربها وهتف كارلوس:

- هل بامكاني ايصالك الى المخيم؟

ولما صعدت الى السيارة سألته:

- ماذا تفعل هنا في نيرخا؟

- كنت ابحث عنك. لما لاحظ ساشا وصول مايك من دونك، شعر بالقلق عليك واقنعني بالذهاب لنجدتك. انت حقاً فتاة غير عاقلة! لا شك انك تحبين المغامرة في مواقف مستحيلة مع رجال غير مرموقين!

لم ترد صوفيا عليه. كانت على وشك البكاء فسألتها بعد قليل:

- متى تناولت آخر وجبة طعام؟

اجابت بصوت منخفض:

- لم اتناول شيئاً منذ الغداء. لكنني لست جائعة.

- بل انا جائع. سنتوقف امام مطعم اعرفه.

وبعد ان مشطت شعرها وخرجت من الحمام التابع للمزرعة الصغيرة التي تحولت الى مطعم ريفي، كان كارلوس يحتسي شرابه بذهن شارد. ولدى قدومها نهض من دون ابتسام. هل سيبدأ باستجوابها لا. شعرت بارتياح واكتفت بالتحدث عن انطباعاتها حول زيارة الكهوف.

كان قد طلب من خادم المطعم احضار وجبة مصنوعة من الدجاج المطبوخ بالارز والكري، ومعها سلطة محلية.

وبعد ان انهت حديثها عن الكهوف سألها كارلوس:

- حدثيني عن جدك ومجموعة كتبه النادرة.

راحت تحدثه باهتمام كبير في الموضوع. وكلما رفعت وجهها عن صحنها، كانت تفاجأ بنظراته المحدقة بها. كأن هذا الحديث ايقظ عنده ذكريات غامضة... لا، هذا جنون ان تتصور انه بدأ يتذكر لقاءهما الاول. لكنه من الأفضل الا يتذكر ابداً التلميذة التي عانقها عند بائع الكتب.

- اين يسكن جدك؟

انتفضت ومن دون تفكير، اعطته اسم مدينة تبعد خمسة كيلومترات عن منزلها.

كان الظلام قد حلّ عندما عادا الى المخيم.

- شكراً جزيلاً لايصالي ولدعوتي الى العشاء. لا اعرف بماذا تفكر،.. لكن...

- لا ضرورة ان تشرحي لي الامور. فليست هذه المرة الاولى التي تتورطين فيها بمثل هذا المأزق. حاولي من الآن فصاعداً ان تكوني اقل سذاجة. مساء الخير، يا صوفيا.

ابتعد عنها ليتحدث مع اسباني عجوز ولما وصلت صوفيا الى مكتب الاستقبال كان ساشا منهمكاً ببعض المخيمين، فقررت الذهاب الى مقصورتها والنوم باكراً.

وفي صباح اليوم التالي، عندما كانت تسلق بيضة على غازها النقال، رأت ساشا يتوقف أمام مقصورتها وهو عائد من الحمام ويقول لها:

- كنت على حق، فيما يختص بمايك، اليس كذلك؟ ماذا قال كارلوس عندما التقى بك؟ هل هدأ روعه؟

- هدأ روعه؟ ماذا تعني؟
- لم يكن مسروراً عندما علم بأنك ذهبت الى نيرخا برفقة مايك. لكن لما عاد هذا الاخير وحده، كان. . .
- قال لي انك انت الذي اقنعته بضرورة التفتيش عني؟
قال ساشا متعجباً:
- انا ابداً. . سأل مايك لماذا لم تأت معه. فارتبك واجابه بان الامر لا يعنيه، وانك قررت العودة بالباص. لكن كارلوس اعلمه بأنه صاحب المخيم ومديره، ومسؤول عنك واجبره على قول الحقيقة.
- يا لتفاهة الامور! ماذا يمكن ان يحلّ بي في هذه المدينة الصغيرة الهادئة.
- كان يخشى الا تجدين باصاً وتوقفين احداً ليوصلك. وهذا عمل فيه خطورة في هذه المنطقة بالذات.
اجابت صوفيا بمرارة:
- ربما يشعر كارلوس انه من الضروري حماية فتاة اجنبية؟
- في كل حال، اخبره مايك ان ثمة سوء تفاهم حصل بينكما ادى الى عدم اتفاق. فطلب منه كارلوس ان يحزم حقيبته ويرحل من هنا.
لم تعد صوفيا تصغي اليه. قالت:
- ارجو ان تأكل بيضتي. انا ذاهبة الى البرج لأقابل فخامته. . . جلالة السيد وليستفهام.
دخلت الحديقة الساحرة واستدارت حول حوض السباحة كالسهم وقرعت الجرس البرونزي. بعد دقيقتين انفتح الباب دهش كارلوس لرؤية زائرته المبكرة. كان قد حلق ومشط شعره، لكنه ما يزال في مئزر النوم.

سألته صوفيا بلهجة عازمة:
- هل بامكاني التحدث اليك؟
- طبعاً! ادخلي. لا. من الأفضل ان تبقي في الخارج وانا أخرج اليك. انتظريني دقيقة واحدة.
وبينما كانت تنتظره، راحت تدور حول حوض السباحة، نادمة بمرارة لأنها لم تتوصل ان تشرح له الامر البارحة. كيف كان بامكانها التكهن بأن كارلوس سيطرد مايك بهذه السرعة؟
وبعد فترة قصيرة خرج كارلوس بلباسه الكامل حاملا صينية الفطور وعليها فنجانان فارغان. سألها وهو يضع الصينية على الطاولة البيضاء:
- قهوة؟
- لا، شكراً. سبق أن شربتها باكراً.
- اجلسي يا صوفيا، لا ترغميني على الوقوف. افضل تناول الفطور وأنا جالس. هل تأخذين فاكهة؟
اشارت بحركة سلبية وقالت:
- انك تشعر فجأة بحس الاحترام.
رفع كتفيه وبدأ يقول:
- اسبانيا. . .
قاطعته قائلة:
- في الميرامار، انت في اسبانيا، على ما أظن.
قال وهو يقشر دراقة:
- الفندق مكان محايد، حيث كل فرد يتصرّف كما يريد، اما هنا، فانا ضيف الماركيز، وانت عذراء مجنونة. . . وهذا لم أكن اعيه في الميرامار.

- لكنني لم اكن مجنونة الى درجة الاستسلام لأغرائك . . . او عدم القدرة على التفاهم مع مايك . . . قال لي ساشا انك طردته . اليس تصرفك هذا نابعاً عن خبث مقصود؟

- ابداً.

صرخت بثقة:

- كيف تجرؤ على طرد رجل، لأنه تصرّف معي مثلما تصرفت انت منذ بضعة أسابيع؟

اليس هذا اوج الخبث كلياً؟

- لا اتذكر انني تركت فتاة على الطريق على بعد ٤٠ كيلومتراً من منزلها، من دون وسائل نقل وربما من دون مال.

- لم يتركني مايك على الطريق. انا رفضت العودة معه، وليس للسبب نفسه الذي جعلني اغادر الميرامار بسرعة.

اجابها كارلوس بجفاف:

- من يسمعك يعتقد انك اضطررت للدفاع عن فضيلتك بالقوة. اذا كانت ذكرياتي صحيحة، لم اذهب بعيداً معك!

- لم تتركني على الطريق، لكنك جعلتني اضطر ان اجتاز مسافة ٤٠ كيلومتراً لأجد مكاناً امضي الليل فيه.

- هيا، يا صوفيا، انت تعرفين جيداً انني تجرأت ان آخذك بالقوة. اعترفي انك كنت مصابة بالذعر، مثل اي فتاة من نوعك.

قالت بصوت منخفض:

- تعتقد ان الفتيات مثلي لسن سوى معادلات مغالطة وبائدة، اليس كذلك؟

- لا، ابداً. معظم الاسبانيات شبيهات بك. وانا احترمهن. لذلك قلقت عليك بالامس. اني احترم بعمق ان تتمتع فتاة جميلة

مثلك بقوة الروح والمثابرة على التعلق بمبادىء العصر الماضي.

- لا فضل لنا ان نرفض فتات الخبز البائت عندما نعرف ان في آخر النهار، ستلبي دعوة وليمة كبرى.

قال كارلوس ضاحكاً:

- هذه اول مرّة يعاملني الآخرون كفتات خبز بائت.

- اسمع يا كارلوس. لم يفعل مايك شيئاً مناقضاً للاخلاق. لا يمكنك ان تطرد هكذا عشوائياً. لكنه يقود سيارته بسرعة رهيبة، الى درجة انني كنت اموت خوفاً. ولهذا السبب رفضت العودة معه.

عاد يقول بجدية:

- انك تضيعين جهدك، يا حلوتي. لا اعرف الى اين ذهب. في كل حال، هذا لا يغيّر الامور. لا تتصرفي بحمق يا صوفيا. هل تعتقدين اني صرفته لهذا السبب الوحيد؟ في الواقع منذ مدة وهو لا يقوم بعمله كما يجب. انه وسخ ومقيت. يشرب كثيراً ويتصرف بسوء في الاماكن العامة في المونيكار. كان بيدرو يرغب في التخلص منه، لكنه تردد لأخذ هذه المبادرة. شخصياً لا أتردد عندما أصل الى القرار النهائي.

ببطء نهضت واقفة وقالت:

- فهمت. المعذرة لازعاجك. سأتركك تتناول فطورك بسلام.

ادارت له ظهرها وخطت بضعة خطوات، فناداها من جديد. وبدا على وجهه اللطف والنعومة.

- وهذه الوليمة التي كنت تتحدثين عنها منذ قليل. . . هل انت مستعدة لانتظارها طويلا؟

- كل حياتي، اذا ما اضطررت للأمر. لا شك ان هذا تصرف احمق بالنسبة اليك، اليس كذلك؟

- ليس احمق. لكن طفيلي وسخيف. . . ماذا قرأت لستيفنسون؟
- فقط «جزيرة الكنز».
- كتابه «رحلة مع حمار» يلخص نظريتي للسعادة عندما كنت بعمرك. . . على فكرة، كم عمرك؟ ١٩ سنة؟ ٢٠ سنة؟
- ٢١ سنة. وانت؟
- انا عجوز، كي اؤمن بنظرية ستيفنسون للسعادة، او كي آمل ان التقي بأمرأة كاملة.
- الكمال ليس من هذا العالم. لكن. . . عليّ العودة الآن فساشا بانتظاري.
ولما عادت الى مكتب الاستقبال سألها ساشا:
- ماذا، هل سمع كلامك؟
- كلا، انا سمعت كلامه.
وخلال فترة الصباح، مرّت أمام مقصورة مايك، فنادتها الخادمة التي كانت تنظفها واشارت لها بالدخول.
- انظري، يا آنسة، اليس هذا مخجلا؟ الحيوان لا يفعل ما فعله!
شعرت باشمئزاز للوساخة الموجودة داخل خيمته، كما شعرت بالخجل ايضاً.
ولما ذهبت الى المونيكار حاولت الحصول على كتاب «رحلة مع حمار» لكن معظم الكتب كانت بوليسية. كادت ان تكتب لجدها وتطلب منه ارساله لها لكنها ادركت انه لا بد ان تجده في غرناطة، في المدينة الجامعية. ترغب حتى الجنون ان تعرف مفهوم السعادة الذي كان كارلوس يتمتع به عندما كان في سنها. . .

٤ ـ المفاجأة والفخّ

وقبل عودة آل فينغيلد الى برج الموورز وجد كارلوس شاباً دانمركياً وسلّمه الحانة على الشاطىء. كما وظف فتاتين هولنديتين في المخيّم.
وسمحت عودة بيدرو ومارغريت اخيراً لصوفيا فرصة الذهاب الى غرناطة في عطلة الاسبوع. رافقها ساشا، الذي طلب منها بوجود كارلوس ان ترافقه في سيارتها.
ولما ادار ساشا ظهره قال لها كارلوس:
- انا سعيد لأنك غير ذاهبة وحدك. ربما تحتاجين الى رجل اذا تعطل محركك او حدث عطل للسيارة. فبين المونيكار وغرناطة الطريق خالية نسبياً، ونادراً ما تسلكها السيارات. وستنتظرين وقتا طويلا للحصول على مساعدة في حال حدوث اي عطل طارىء.

- لكني قادرة على ان اغيّر عجلة بسهولة تامة.

- انا اكيد من ذلك. وانا ايضا اعرف ان اخيط زراً. لكن لماذا لا تتحاشين توسيخ يديك ما دام هناك شخص بامكانه ان يحلّ مكانك في مثل هذه الامور؟ وهناك احتمال وقوع حادث لا تتوقعينه.

- هل الطريق مخيفة الى هذه الدرجة؟

- ليس تماماً.

وفي حوالى الثامنة صباحاً، خرجت صوفيا مع ساشا في سيارتها من المخيّم، وسلكت الطريق المؤدية الى المونيكار. ثم اخذت طريقاً سهلية تمتدّ على ضفتي نهر الريو الاخضر. كان السهل خصباً ومزروعاً بشتى انواع الخضار والفاكهة. فلفت ساشا نظرها الى حقول السفرجل الهندي او ما يسمى بالقشدة، وقال شارحاً:

- انها اشجار من اصل امريكي، خاصة من امريكا الجنوبية. ثمرتها تشبه الارضي شوكي وطعمها لذيذ. لكن للأسف، ليس الآن موسمها.

- اين تنوي النزول في غرناطة؟

كانت صوفيا قد قررت التوقف في مخيم قريب من المدينة، نصحها به زوجان يقضيان شهر العسل في مخيّم برج المووزز. فاجابها ساشا:

- آه، لا اعرف سأقرر حين اصل البلد.

اجتازت الطريق الساحلية بين غابات الصنوبر، حتى قرية اوليغار، آخر قرية على الطريق. بعدها لن يلتقيا الاّ بالمزارع والفنادق المنعزلة.

وتساءلت صوفيا فجأة: هل سيكون كارلوس ما يزال في المخيم

لدى عودتها؟ عاد آل فينغيلد ولم يعد لديه من سبب للبقاء. لكن، اذا كان ينوي الرحيل. لكان ودعها على الاقل...

وبدأت الطريق ترتفع والمنعطفات تضيق. وعلى السيارة المتجهة نحو غرناطة ان تسير مع الشاطىء الصخري. ومن حين الى آخر كانا يلتقيان قطيع ماعز، بلونيه الاسود والبني، او بغلا نصف نائم يحمل على ظهره عجوزاً يجلس بين سلتين من قصب.

ويهيأ للسائق انه سيصل الى قمة الجبل بعد كل منعطف. لكن الطريق كانت تظهر قمماً اخرى، وهكذا باستمرار. وبعد ساعة من القيادة، تحول المنظر المتوحش للجبال الكلسية الى هضبة من الادغال.

وفي العاشرة لمحت صوفيا اخيراً غرناطة على سفح الثلوج للسييرا نيفادا.

توقفت صوفيا عند الضوء الاحمر وشاهدت عاملا ببزته الزرقاء الملطخة بالغبار والأسمنت يغني بفرح اغنية عاطفية شعبية. كانت صوفيا تحب كثيراً الحان الفلامينغو. لكن هذا الصوت الحزين الايقاعي، الغجري، البوهيمي، الفينيقي، جعلها ترتعش انفعالا، ولم تلاحظ الضوء الاخضر الا بعد ان لفت ساشا نظرها اليه. لكن السيارة لم تكن تريد الاقلاع.

وبعد ساعة كانت السيارة في المرآب للتصليح. وكي لا تفسد على ساشا عطلته لأنه لم يكن يريد ان يتركها في هذا المأزق، قررت صوفيا العدول عن المخيم والبحث عن فندق في المدينة.

وفي اواخر بعد ظهر اليوم التالي، دخلت صوفيا الى [illegible] ولشدة فرحها، كانت فارغة تماماً. مئات السياح يتسكعون في غرناطة، لكن يبدو ان صوفيا هي الوحيدة التي

كانت تشعر باهتمام معين لزيارة قبر غوزالفيه دي كوردويه، القبطان الكبير المشهور، الذي انقذ غرناطة عام ١٤٩٢.

كانت في داخل منذ بضعة دقائق، جالسة على احد الادراج المصنوعة من الرخام الزهري، مسرور لكونها بعيدة عن الضجة وشدة الحرّ في الخارج، عندما رأت كارلوس يقترب منها.

قال وهو يجلس قربها:

- انت تزورين غرناطة بالتفصيل، على ما أرى. قلة هم السياح الذين يزورون قبر غوزالفيه دي كوردويه

- اردت رؤية تمثال القبطان الكبير. لكن... لماذا انت هنا؟

- انا ذاهب الاسبوع المقبل لزيارة ابناء عمي، في سكنهم الصيفي الذي يقع قرب مدينة رونزا. وكنت ابحث عن هدية لويزا. ومن الدكان حيث كنت، لمحتك تمرّين، فتبعتك. اود ان اقترح عليك انت وساشا، ان ترافقاني مساء اليوم الى سهرة خاصة بموسيقى واغاني الفلامنغو. لكن ربما لا تعرفين في اي فندق يقيم ساشا.

- بلى، بلى. في كل حال، لدي موعد معه بعد نصف ساعة، في بلازا ديل كارمن.

- اذن، سأبقى معك. لماذا يهمك كثيراً رؤية تمثال القبطان الكبير؟

- لأنه كان احد ابطال شبابي. صورته ليست جميلة كما كنت اتوقعها... كنت اتخيله ممشوق القامة واسمر اللون.

- كنت اعتقد ان طريقة معاملته لزوجته، ستقلل من قيمته، وفقاً لمفهومك ونظرياتك.

- ماذا تعني؟ هل كان طاغية وفظاً؟

- كلا. لكن، عندما احترقت خيمة الملكة ايزابيل مع كل ما تحتويه، أرغم زوجته ان تهب جهازها كله الى الملكة.

- آه، لكن لا شك انه اشترى لها جهازاً آخر، بعد ذلك! ربما كان يحب الملكة ايزابيل، كما يشاع احياناً. في كل حال كانت الملكة تحبه اكثر من زوجها فيرديناند المضجر.

نظرت الى ساعة يدها وقالت:

- علينا ان نذهب لموافاة ساشا.

في الخارج كان الحرّ قوياً. فتأبط كارلوس ذراع صوفيا ليجتازا الطريق بأمان.

- اذن، الم تخيب الحمراء املك؟

- لماذا هذا السؤال، طبعاً لا. البلد ساحر وجميل. السقوف المجوفة والمزخرفة بشكل نجوم، والقبب والجص المحفور، ومتاهة الغرف المظلمة، والحدائق المزهرة، وحفيف المياه على الاحواض الرخامية ونافورة الماء في وسطها، وانعكاس الشمس على الاعمدة... لا يوجد كلمة لوصف هذا الافتتان... يجب ان يكون الانسان وحيداً ليتذوق هذا المكان الكامل.

وصلا قبل الموعد ببضع دقائق ولم يكن ساشا قد حضر بعد. فاقترح كارلوس التوقف على شرفة مقهى، في الظل. ثم سألها:

- هل تريدين شراباً منعشاً ام بوظة؟

- شراب منعش من فضلك.

منذ نصف ساعة ارتدت المدينة حلة جديدة بنظر صوفيا. لم تعد تتذكر الحمراء، انما فقط هذا المكان العادي الصاحب وشرفة المقهى ويد كارلوس السمراء الموضوعة على طرف الطاولة. سألته:

- اين يسكن ابناء عمك في الشتاء؟

- في سفيليا. في الصيف الحرّ شديد هناك. ومن أواخر أيار (مايو) حتى تشرين الاول (اكتوبر)، تمضي لويزا مع الاولاد معظم الوقت في الجبل. يلتحق بهم هيلاريو في اغلب الاحيان، ومتى سمحت له ظروف عمله. آه، هذا ساشا قد وصل.

ظهر الشاب الفرنسي حاملا بيده حزمة صغيرة. لم يعد يشبه الخنافس. بقميصه الجيرسي الناعم، ذات الاكمام القصيرة، وسرواله النظيف والمكوي، واحذيته الملمعة كأنها جديدة. انما كان كأي اسباني من المنطقة يتوجه الى عمله بعد قيلولة الظهيرة.

حيّا كارلوس ثم قال لها:

- لقد وجدت الكتابين كما طلبت مني.

- شكراً. كم ثمنهما؟

- الفاتورة داخل الحزمة.

فتح الكيس واخرج الفاتورة والكتابين، احدهم كان «الرحلات في اسبانيا» لتيوفيل غوتيه، والثاني، الكتاب الذي كانت تود صوفيا ان تقرأه في كل عزم... حاولت ان تفعل ما في استطاعتها لتخفيه عن نظرات كارلوس! لكن كيف؟

فتحت محفظة نقودها، فوضع ساشا الكتابين على الطاولة وبالطبع، اخذها كارلوس بسرعة!

- كان بامكاني ان اعيرك كتاب غوتيه، يا صوفيا! لماذا لم تسأليني؟

- ليس من الضروري ان تكون راغباً في اعارتي الكتاب.

- افعل كل شيء لحفيدة رجل ملمّ بالكتاب!... آه، الكتاب الثاني: «رحلة مع حمار»!

هل ما زال يتذكر الحديث الذي جرى بينهما ذلك الصباح عندما

اسرعت الى البرج لتلومه بعنف لأنه طرد مايك من الحانة؟ ورغم تغيير وجهه العادي، شعرت صوفيا انه لم ينسَ شيئاً.

ران صمت قصير مزعج، ثم سأل ساشا:

- لا شك ان صوفيا اخبرتك عن المشاكل التي تعرضت لها بسبب سيارتها، أليس كذلك؟ اخشى ان يكون الميكانيكي قد ضخم الامر ليزيد الفاتورة.

- هل حدث لكما حادث؟

قالت صوفيا:

- لا، لا. عطل بسيط.

وبعد ان سمع كارلوس القصة بالتفاصيل سأل:

- واين هو المرآب؟ من الافضل ان اذهب بنفسي لأراها.

- لا، لا تتعذب! لا اعتقد ابداً ان صاحب المرآب يريد ان يحتال علي.

قال ساشا بسخرية.

- يا صوفيا المسكينة، كل اصحاب المرائب كيف بامكاننا التأكد من ذلك؟ لذلك نحن مضطرون ان نصدق كلامهم.

قال كارلوس:

- بشكل عام، اجرة صاحب المرآب ليست مرتفعة. لكن، في مثل هذا الموسم المزدحم. تتكاثر عليهم الاشغال بصورة غريبة. ربما باستطاعتي ان اسرّع في اصلاح السيارة وتسليمها بأقرب وقت ممكن. هل معك بطاقة بعنوانه، يا صوفيا؟

- نعم، لكنني اكيدة ان ساشا مشغول البال من دون سبب. اذا لم تكن السيارة جاهزة في وقت عودتنا، نأخذ الباص. واعود لأجلبها في

وقت لاحق.

ـ وفي كل حال، افضّل ان اتوجه الى المرآب بنفسي هيّا، اعطني البطاقة، وقلماً اذا امكن.

نفذت صوفيا ما قاله على مضض، ثم سألها:

ـ عنوانك؟

دوّنه على طرف البطاقة. وبرؤية خطه تذكرت صوفيا البطاقة التي ارسلها مع سلة القرنفل عندما كانت في برشلونة. هذه البطاقة التي كان يجب عليها ان تمزقها، لكنها حافظت عليها من شدة جنونها...

وقبل ساشا ان يذهب في المساء لسماع غناء الفلامينغو، فسأله كارلوس عن عنوانه:

ـ العنوان نفسه. نحن معاً في فندق سانتا كلارا.

اندهش كارلوس، لكن صوفيا اسرعت في القول:

ـ يتقاسم ساشا غرفة مع شاب آخر. اما انا، فأتقاسم غرفة ابنة صاحب الفندق. من حسن حظنا اننا وجدنا مكاناً للنوم، لأن المدينة كلها تغص بالسياح.

جاء الخادم ودفع كارلوس الفاتورة وقال واقفاً:

ـ سآتي في التاسعة. وقبل السهرة سنذهب للعشاء.

قال ساشا بعدما ابتعد كارلوس:

ـ لا شك ان كارلوس نزل في القصر!

ـ نعم، ربما.

ـ هل تريد شراباً آخر؟

ـ لا، شكراً. اريد ان اعود الى الفندق لأرتاح قليلاً، لأننا سنتأخر في السهرة، مساء اليوم. الى اللقاء.

صعدت صوفيا الى الغرفة الصغيرة التي لم تكن تحتوي الا على

سريرين، وخزانة ومغسلة. وبعد ان اغتسلت بالماء البارد من رأسها حتى قدميها وبالصابون الاسباني المصنوع بالحامض، صعدت الى سريرها وتمددت لتقرأ ساعة أو ساعتين.

ولم تقرأ الا ٢٠ صفحة حتى قاطعتها ابنة صاحب المطعم بدخولها. وبعد قليل جاء ساشا يقترح على الفتاتين ان يأخذهما لتناول «الكوروس».

تخلت صوفيا عن مواصلة القراءة، وارتدت ملابسها بسرعة وخرجت لتتذوق هذه الفطائر بشكل الأصابع المقلية بالزيت والمرشوشة بالسكر الناعم او بالشوكولا الساخن.

كانت الساعة الثامنة عندما عادا الى الفندق. ابنة صاحب الفندق توجهت الى المطبخ لتساعد والدتها، وتوجهت صوفيا الى غرفتها.

خلعت سروالها الزهري وارتدت فستاناً تحبه، اشترته من فرنسا بثمن باهظ، انه من قماش الموسلين الاصفر بلون الحامض.

وفي التاسعة الا ربعاً، جاءت السيدة موريتو لاهثة لتعلمها ان رجلاً «نبيلاً» ينتظرها في مقهى الفندق.

فمرّت صوفيا امام غرفة ساشا وصرخت من الخارج.

ـ وصل كارلوس.

ـ سأوافيكما بعد خمس دقائق.

سألتها صاحبة الفندق، بنظرة خائبة:

ـ هل هذا الشاب سيذهب معكما؟

ـ يقول المثل الانكليزي: كلما ازداد العدد، كلما خفّ الخطر.

ضحكت المرأة وقالت:

ـ انت على حق! آه، هذا الرجل فيه شيء مميّز يسحر اي انسان! يا الهي، كم هو وسيم! واسنانه! عنده ابتسامة تذيب ثلج اعلى

الجبال!

ولما دخلت صوفيا الى المقهى كان كارلوس يصغي الى عجوز، لا اسنان في فمه. آه، يا لشدة التناقض بينهما. لكن، ربما كان العجوز في حياته بوسامة كارلوس...

وبعد عشاء رائع، توجهوا الى الحديقة حيث كانت الفتاة ذات العينين السوداوين والشعر الطويل ترقص الفلامينغو وتطرطق بالصنّاجات على موسيقى قيثارة اسبانية. انها انسانة رائعة وذات نظرات محترمة. وخلافاً لبقية المشاهدين، كان كارلوس ينظر اليها بهدوء اعصاب. كأنه ملّ وضجر.

توقفت الراقصة لحظة وأخذ مكانها رجل راح يغني الأغاني العاطفية الشعبية. ولما عادت الراقصة الى الحلبة، كان جنون الفلامينغو في اوج هيجانه. ذراعاها الطريتان تتحركان بلباقة وخفة، تنورتها الحمراء المكشكشة تزوبع كالاعصار، وعيناها واسنانها تلمع. فراح الجمهور المنسحر يصفق بحماس على ايقاع الموسيقى.

انتهت الحفلة في ساعة متأخرة. طلب كارلوس سيارة تاكسي. وجلس في المقعد الخلفي قرب صوفيا، بينما جلس ساشا قرب السائق. واضطرت صوفيا ان تتقوقع في الزاوية كي يتمكن كارلوس من اراحة قدميه الطويلتين. فدخان سيكار ساشا ورائحة العطر العنيفة عند السائق جعلا الجوّ لا يطاق. أخفض كارلوس النافذة وقال:

ـ غداً، سأمضي الليلة في سييرا نيفادا. وبما ان سيارتك لن تكون جاهزة الاّ بعد بضعة أيام، الا تجدان انه من الافضل مرافقتي الى هناك؟ وسأعيدكما الى الساحل بعد غد.

ـ آه، صحيح! السيارة! لقد نسيت هذه المشكلة كلياً...

ـ يا الهي، هل السيارة في حالة سيئة؟ ماذا هناك؟

ـ لا، لا شيء. فهي تحتاج الى قطعة غيار، اضطر صاحب المرآب ان يوصي عليها. واتفقت معه، انه متى انتهت التصليحات، سيوصل احد الموظفين السيارة الى قلب المخيم. ولن تجد صعوبة في العودة الى غرناطة. من الأفضل ان تعطيه بقشيشاً محترماً، على ان تذهبي بنفسك لأحضارها.

ـ شكراً جزيلا لتدبيرك هذه الأمور. آمل الا تتأخر قطعة الغيار في الوصول، كما حدث لأصدقائنا الهولنديين، الشهر الفائت. هل تتذكر هذه الحادثة. يا ساشا؟ المساكين، اضطروا ان يبقوا ثلاثة أسابيع بالانتظار.

توقفت سيارة التاكسي امام فندق سانتا كلارا وساعد كارلوس صوفيا على الهبوط وقال:

ـ اذن، ما رأيكما في ان تذهبا معي الى رؤية الثلج من قريب.

ـ ليس لدي مانع...

ـ وانت، يا ساشا؟

حبست صوفيا انفاسها ولحسن حظها قبل ساشا الدعوة أيضاً.

وكي لا توقظ ابنة صاحب الفندق باضاءة الغرفة مدة طويلة، لم تقرأ صوفيا كعادتها قبل النوم، بالرغم من رغبتها في الوصول الى المقطع الذي لمّح عنه كارلوس.

اتفقا على ان يلتقيا في اليوم التالي في مقهى قريب من سانتا كلارا. نهض ساشا واقفاً بعد ان لاحظ انه نسي ساعة يده في الفندق وذهب للبحث عنها. ولما اصبحا وحيدين سألها كارلوس:

ـ لو رفض ساشا تلبية دعوتي، ماذا كنت ستفعلين؟

ـ لكنت غيرت رأيي، ببساطة.

ـ وبرغم الوعد الذي قطعته عليك، ما دمت مسؤولا عن المخيّم؟ الاّ تحترمين وعدي؟

ـ لا تنسَ انك أضفت تقول: «فقط عندما تعلمينني، انت بالذات، ان عفّتك اصبحت ثقلا عليك».

ـ لو وافقت على المجيء، في هذه الشروط، لربما اعتقدت انني غيرت رأيي.

ـ لقد نسيت هذا الشرط.

ـ لكن انا لم انسَ.

ولحسن حظها كانت ترتدي نظارتيها وبالتالي لا يمكنه ان يلمح الحزن الذي ملأ عينيها. آه، كم هو جميل ان تتناول الغداء برفقة كارلوس، تحت الشمس، على شرفة هذا المقهى، في مدينة غرناطة الاسطورية. لو كانت ابتسامته حنونة وغير ساخرة... ولو كان يشعر نحوها بشعور اقوى من الانجذاب الجسدي، آه نعم... لكان ذلك رائعاً...

كان كارلوس يقود سيارته بسهولة وقدرة هائلة برغم كثرة المنعطفات الضيقة. واحياناً كان يتوقف على جانب الطريق ويترك لها مجال الاستمتاع بالمناظر الخلابة. وكان كارلوس قد احضر معه صندوقاً صغيراً مليئاً بالحلوى وبعض السندويشات واعد له سندويشاً في داخله طعاماً اسود اللون. فقالت صوفيا:

ـ لا بدّ ان طعمه لذيذ.

ـ انا اكيد ان هذا النوع من الطعام لا يمكنك تذوقه.

ـ كيف تستطيع التكهن بذلك؟

مدّ اليها السندويشة وقال:

ـ حاولي اذا اردت.

بعد تردد تناولت قطعة صغيرة وكان ينظر اليها بسخرية. ما يمكن ان يكون في داخله؟ شيء حار يحرق الفم ساعات طويلة؟ الداخل يشبه مقانق بنية غامقة. اخيراً وضعتها في فمها وراحت تمضغها. ثم قالت:

ـ آه، انها لذيذة الطعم!

سألها بفضول:

ـ صحيح؟

ـ نعم! ما هذا الذي اكلته؟

ـ (بوتيفارا نيغرا). انه نوع من المقانق العادي لكن الخبز قد غمّس بزيت الزيتون وعصير الطماطم.

ـ كنت تعتقد انني اكره زيت الزيتون، اليس كذلك؟

ـ انها الحال مع معظم الشعب الانكليزي. تصورت انك تفضلين اكل الحلوى...

ـ هذا يدل على ان الانسان يتصرف احياناً بتفاهة لأنه يتخذ رأياً مسبقاً حول الناس وفي غالب الاحيان يكون هذا التصوّر المسبق خاطئاً مئة في المئة.

ـ انت على حق. في كل حال، ليست هذه هي المرّة الاولى التي اشعر فيها بالخطأ تجاهك.

ـ لكن قطع الحلوى تبدو رائعة. سأتذوق تلك المصنوعة بالجوز.

وبدأت سفوح الجبل تتغلف بالعشب القليل. وكلما ارتفعوا كلما اصبح الهواء منعشاً وقوياً. اخيراً وصلوا الى بناية طويلة تستعمل في الشتاء كفندق لايواء المتزلجين عندما تختفي الصخور تحت الثلج الكثيف.

قررا النزول في الفندق ولمّا اعطاه موظف الاستقبال قلماً ليسجل على السجل اسماءهم، تذكرت صوفيا بغصّة الاهانة التي تحملتها في الميرامار. هل ما زال كارلوس يتذكر هذه الحادثة؟

اعطاهم الموظف المفاتيح. حمل كارلوس حقيبته وحقيبة صوفيا، وتوجه الثلاثة الى السلم. وفي منتصف الطريق، شعرت صوفيا فجأة بدوار، فتعلقت بالدرابزين ثم اتكأت على الجدار. كان تنفسها متقطعاً.

قال لها كارلوس بصوت واثق:

- لا تخافي. هذه ردة فعل الارتفاع الشاهق، نحن على علو ثلاثة آلاف متر. ومن المستحيل تسلق السلالم بسرعة، الا بعد مرور وقت معين يتعوّد فيه الجسم على تحمل العلو والتكيف معه.

- آه، اي احساس رهيب!

هدأت دقات قلبها شيئاً فشيئاً فقال لها كارلوس:

- كان يجب عليّ ان احذرك.

اعطى ساشا حقيبته ومدّ ذراعه حول خصر صوفيا ليساعدها على تسلق السلالم الباقية. فهمس ساشا بصوت لاهث وهو يصعد وراءهما:

- وانا ايضاً اشعر بفرق العلو.

- لكنني لم اسمع ان احداً مات من هذا الارتفاع!

رمقته صوفيا بنظرة سريعة. كان يبتسم وشعرت انه مسرور لأخذها بين ذراعيه ولما وصلا ابتعدت عنه وقالت:

- شكراً. اشعر بتحسن ملموس، الآن.

غرفتها الواسعة كانت تطل على منظر ساحر للجبال البيضاء. ومن بعيد كانت ترى غرانادا. اخذت دوشاً بسرعة ولفت جسمها

بمنشفة بيضاء سميكة. ثم سمعت طرقاً على الباب:

- من الطارق؟

- كارلوس.

ترددت ثانية قبل ان تفتح محاولة الاختفاء قدر الامكان وراء الباب.

سألها كارلوس للحال:

- هل اخرجتك من الحمام.

- لا، لا. كنت قد خرجت لتوي. ماذا في الامر؟

- ربما هذه السترة الصوفية تكفي لتقيك البرد، خاصة اذا قررت التنزه بعد الظهر. لا شك انك لم تجلبي معك ثياباً دافئة عندما جئت الى غرناطة؟

- بالطبع، لم اكن اتوقع هذه الرحلة. شكراً جزيلا. لكن. . . هل عندك سترة غيرها لك؟

- نعم، نعم. لا تقلقي.

اغلقت صوفيا الباب وعلقت السترة الكحلية المصنوعة من الكشمير وشعرت بالخجل لأنها ترددت بضع ثوان لتفتح له الباب وهي في هذه الهيئة.

وبعد الغداء صعدوا الى «عذراء الثلوج». انه تمثال حديث وضخم بني على قمة صخرة عالية. وكانت صوفيا متكوّرة في دفء سترتها الناعمة. تنتشق بامتنان النسيم المنعش الذي يرعش النباتات الصغيرة المعلقة بالصخور.

ولما عادوا الى الفندق كانت الشمس قد غابت. فاقترح كارلوس عليهما الاستراحة في صالون الفندق المريح. وراح الرجلان يطالعان الصحف بينما كانت صوفيا حالمة تحتسي فنجان قهوة مع الحليب

الساخن. لا شك انها غطت بالنوم لفترة قصيرة. ولما فتحت عينيها كان كارلوس وحده قربها.

- اين ساشا؟

- صعد الى غرفته ليستريح وربما ينام قليلا...

- اظن أنني سأفعل مثله.

- ولم لا؟ كوني حاضرة في التاسعة لتناول طعام العشاء هل هذا يناسبك؟

صعدت السلالم ولما وصلت الى غرفتها، وقبل ان تغلق الباب، التفتت وراءها ورأت كارلوس يقرأ مجلة محلية. لماذا انقبض قلبها؟ بماذا كانت تأمل؟ ان يصرّ عليها في البقاء معه؟

تمددت في سريرها وفتحت كتاب ستيفنسون. وبعد قليل وجدت المقطع الذي كانت تبحث عنه: «... ذلك لأن هناك صداقة تزوّد شعوراً بالطمأنية والهدوء الى درجة انها تصبح احياناً وحدة كاملة. العيش مع الحبيبة في الهواء الطلق هي الحياة الاكثر كمالا وحرية».

في الثامنة والربع رنّ جرس الهاتف في غرفة صوفيا. فكانت موظفة الاستقبال تتصل بها لتوقظها. وفي التاسعة وجدت كارلوس يستقبلها في الصالون برفقة ساشا. كان العشاء رائعاً ومتيناً ولم تقدر صوفيا على اكماله برغم من شهيتها القوية. بدت صامتة ومتأملة. فقال لها كارلوس.

- اراك هادئة، هذا المساء، يا صوفيا.

انتفضت واجابت وهي ترفع كأسها على شفتيها:

- ما زلت متأثرة بالارتفاع.

وبعد العشاء، راح الرجلان يلعبان الشطرنج، بينما فضلت صوفيا قراءة مجلة فرنسية واحتساء عصير البرتقال الطازج. واخذت

بمخيلتها تطرح اسئلة عديدة على نفسها: بعد غد، سيرحل كارلوس بعيداً. ماذا كان حدث لو بقيت معه في الميرامار؟ اين كنا اصبحنا الآن؟ هل كان سئم مني؟ حتى السعادة العابرة لم تعد مسألة يمكن تجاهلها... عندما اصبح بعمر عمتي روزا، الن اشعر بالندم والمرارة لأني قاومت كارلوس؟

في الحادية عشرة، قررت ان تذهب الى النوم بينما كان الرجلان ما يزالا يلعبان الشطرنج.

قال لها كارلوس بعد ان نهض عن كرسيه:

- انا متأسف، فلم نهتم بك كما يجب.

- انا ناضجة كفاية كي الهو وحدي.

قال بجفاف:

- لا اشك بذلك، لكن هذا لا يعذر تصرفاتي السيئة. هل لديك ما تقرأينه قبل النوم؟

- نعم، شكراً، تصبح على خير. تصبح على خير، يا ساشا.

- نعم، لديها كتاب «الرحلات في اسبانيا» لغوتيه... لكنها تسلية لا قيمة لها... لا يمكنها ان تبعد عن ذهنها التفكير بكارلوس وبرحيله القريب. يا الهي، كم ستشتاق اليه!

افاقت صوفيا في صباح اليوم التالي على زوبعة مطر تهز نافذة غرفتها. كانت الساعة السابعة. وكان المطر ينهمر بقوة عندما نزلت الى غرفة الطعام.

كان الفطور مؤلفاً من قهوة وحليب وخبز محمص وزبدة ومربى. ومن وقت الى آخر كانت اشعة الشمس تمزّق سماكة الغيوم. كان الطقس بدأ بالتحسن ومن دون سبب رفعت صوفيا فجأة نظرها نحو الدرابزين الفاصل بين غرفة الطعام والصالون. ففوجئت بكارلوس

واقفاً قرب السلالم، ينظر اليها. تهيأ لها انه يحدق فيها منذ بضعة دقائق. فتشابكت نظراتها واشار اليها بحركة صغيرة وتوجه نحوها.

- صباح الخير، هل نمت جيداً؟

- آه، نعم. لكن المطر ايقظني في السابعة.

جلس أمام الطاولة، فجاءت الخادمة في الحال حاملة ابريق القهوة وفنجان وحليب وسكر على صينية ووضعتها على الطاولة.

قال كارلوس بعد ان ابتعدت الخادمة:

- لا شك انها تعتقد اننا متزوجان.

- ليس من الضروري ان يتناول الزوجان الفطور معاً؟

- لكن كما رأتك عابسة ولم تبتسمي لي بلطف كما يجب، تصورت اننا متشاجران... ها هي آتية مع الخبز المحمص. الا ترين انها تطرح على نفسها الاسئلة بخصوصنا؟

قالت صوفيا خافضة العينين:

- ولماذا لا نقول لها اذن اننا لسنا متزوجين ولا متشاجرين؟

فرفع ذقنها ببطء وحدّق فيها وقال بلهجة تلين لها الحجارة:

- ذلك لأنه من ابسط الامور ان تريني ابتسامتك الحلوة العادية.

بدأ قلب صوفيا يخفق في جنون. لكن ذلك لم يدم طويلا. وصلت الخادمة حاملة الخبز المحمص وبعد لحظات كان ساشا جالساً معهما. بقيت صوفيا جالسة لكن عقلها كان شارداً...

قال كارلوس:

- لقد فكرت انه بدلا من العودة من الطريق نفسه، بامكاننا ان نسلك الطريق الآخر من الجهة المعاكسة.

قالت صوفيا متعجبة:

- اعتقدت ان الطريق تنتهي في القمة؟

سأل ساشا:

- ومتى تنويان الرحيل؟

نظر كارلوس الى ساعة يده وقال:

- متى تصبحان جاهزين. والافضل ان نذهب باكراً.

بعد عشر دقائق وتحت سماء ملبدة بدأت رحلة العودة. عاصفة اخرى تنذر بالوقوع. تمثال «عذراء الثلوج» كان رمادياً تحت الغيوم السوداء التي كانت تبث نوراً غير محدد.

وعلى الطريق يافطة تنبّه السائقين بأن طريق الشمال يمكن ان تسلكها فقط الآليات الخفيفة وسيارات الجيب، مع بعض التحفظ.

فقال كارلوس بعد ان خفف سيره ونظر الى صوفيا:

- اذا كانت هذه الطريق تخيفك، فلسنا مضطرين لأخذها، باستطاعتنا العودة كما اتينا «ببساطة».

سأل ساشا:

- هل تعرف الطريق جيداً؟

- نعم. انها صعبة، لكنها غير خطرة... ماذا، يا صوفيا، انا بانتظار جوابك.

- انا اثق بك كلياً، كسائق محترف.

اكمل كارلوس طريقه بعد ان همس بأذن الفتاة قبل التركيز في القيادة:

- لكن، كسائق فقط... اليس كذلك؟

النزول المثير دام حوالى ثلاث ساعات. وشعرت صوفيا كأنها ضائعة في هذه الصحراء الصخرية التي تعصف بها الرياح. ولأميال شاسعة، كان المسكن الوحيد ملجأ لمتسلقي الجبال. وكان يدعى «ملجأ ريو سيكو». وفي كل لحظة كان يبدو لصوفيا ان طرف الطريق

سيتهدم تحت عجلاتهم وسيقع معهم في الهاوية. اخيراً لمحوا آثاراً للحياة: من بعيد ظهر قطيع ماعز اسود، ومنزل صغير تقف امامه امرأة ترتدي ثياباً سوداء من رأسها حتى اخمص قدميها وكانت تنظر اليهما نظرة حادة.

توقفوا عن متابعة السير في قرية كابيليريا لتناول الغداء. فقد اخرج كارلوس زجاجة الماء المعدنية ووضعها في الماء المثلجة. وسلة المأكولات الباردة التي احضرها من مطبخ الفندق. وبعد الأكل شعرت صوفيا بالنعاس وراحت تتثاءب مثل ساشا. اما كارلوس فكان نشيطاً كأنه لم يأكل ولم يقد كل هذه المسافة.

وبعد كابيليرا، اصبحت الطريق محدودة بالغابات والحقول والعرائش. توقف كارلوس امام مقهى صغير وسأل:

- قهوة؟

وافق الجميع. وبينما كانوا يجتازون الطريق قال كارلوس بلطف:

- آمل ان تكون المراحيض هنا نظيفة!

وفي أواخر بعد الظهر وصلوا الى المخيّم. اوقف كارلوس السيارة امام الباب، فنزلت صوفيا وساشا وقبل ان يتمكنا من شكره، كان قد اقلع في الحال.

وقالت صوفيا لنفسها في حزن كبير: هذه الصفحة قد انتهت. وسأقضي الصيف، وربما بقية حياتي، نادمة على رجل سينساني بعد أيام معدودة...

ولما توجهت الى مقصورتها شعرت بحزن وكآبة. ولم تنم ليلتها جيداً بل استيقظت بألم حاد في رأسها.

وفي منتصف الصباح رآها ساشا واسرع يقول لها:

- يريد كارلوس ان يودعك. فهو ينتظرك امام مقصورتك.

- آه، صحيح.

توجهت صوفيا ببطء نحو مقصورتها بعد جهد كبير لتبدو هادئة وغير مبالية. فقالت:

- قال لي ساشا انك راحل. هل امامك طريق طويلة؟

- كلا، ليس كثيراً.

- اذن... اتمنى لك رحلة موفقة، يا كارلوس.

مدت له يدها، اخذها وتركها بين يديه ثم تردد لحظة قبل ان يقول:

- في الواقع، جئت لأقنعك بالمجيء معي.

- المجيء معك؟

- لا تتقلصي. لا أقوم باقتراح وقح. لكن ابناء عمي تعرضوا لمشكلة بسيطة، ربما انت قادرة على مساعدتي لحلها. مساء امس، اتصلت هاتفياً بهيلاريو لأعلمه بوصولي، فأخبرني. ان مربية الاولاد، الآنسة سميث، دخلت المستشفى لاجراء عملية جراحية صغيرة، وسألني اذا كنت اعرف فتاة انكليزية قادرة ان تحل مكانها لمدة اسبوعين او ثلاثة. وقد فكرت فيك.

- لكن... وعملي هنا؟ وسيارتي؟

- كلمت بيدرو بالامر، فلا مانع لديه ان يحررك. اما بالنسبة الى السيارة، فلن تكون مسألة ايصالها الى المزرعة عملية صعبة.

كانت ترغب في ان تسأله كم من الوقت سيبقى عند ابناء عمه. لكنها وجدت الامر دقيقاً للغاية. فقالت:

- هل يعيدني بيدرو الى المخيّم متى عادت المربية الى عملها؟

- طبعاً. ربما اقترح ابناء عمي عليك شيئاً آخر، عملا مثيراً اذا ما اردت تمديد مدة اقامتك في اسبانيا. صحيح ان عملك هنا في المخيم

ممتع لكن لا يمكنه ان يقدم لك الا نظرة محدودة عن حياتنا. الا ترغبين في اكتشاف اسبانيا الحقيقية خارج السياحة؟

- بلى، طبعاً.
- اذن، انت موافقة للذهاب؟
- لكنني لم اهتم كثيراً بالاولاد... واخاف ان...
- لا اهمية لذلك. سيطلب منك مراقبتهم، وقراءة القصص...

احياناً تضطر لويزا في غياب المربية ان تحلّ مكانها. لكنها الآن حامل وعليها الاهتمام بنفسها على اكمل وجه.

- اذن، ساغتنم هذه الفرصة لاكتشاف الحياة العائلية في اسبانيا.
- عظيم جداً.

كان يبدو انه لم يشك لحظة واحدة انها سترفض طلبه.

- كم تحتاجين من وقت لتحضري حقائبك؟
- نصف ساعة.

وبعد ساعة، ودعت صوفيا آل فينغيلد وساشا وكل العاملين في المخيم ورافقت كارلوس في طريقه الى مالاغا. هل هذا القرار كان عاقلاً؟ لا شيء يؤكد ذلك...

اخرج من الصندوق الداخلي خريطة واعطاها لصوفيا التي فتحتها ورأت امامها كوستا ديل سول بكاملها. لكنها ما لبثت ان عادت تتذكر سهرتها الاولى في برشلونة عندما همس كارلوس في اذنيها بعد ان عانقها:

- تصبحين على خير، يا حبيبتي.

رأت نفسها من جديد بين ذراعيه وراحت تحلم في اليقظة... وتتخيّل انهما ذاهبان في رحلة شهر العسل...

انتفضت وعادت الى الواقع عندما سمعت زموراً قوياً. يا الهي ما

هذا الجنون في الاسترسال باطلاق العنان لمخيلتها المجنونة! كانت السيارة البيضاء الكبيرة تلتهم الاميال. توقفا للغداء في محطة ماريبيلا الارستقراطية ثم وصلا الى سان بيدرو في حوالى الرابعة. ومن هناك انعطفت السيارة من الطريق الدولي لتدخل الطرق الفرعية داخل الاراضي. ولاحظت صوفيا ان منطقة روندا الجبلية هي اكثر توحشاً من منطقة غرناطة الساحلية.

قال كارلوس كأنه قرأ ما يراود افكارها:

- هذه المنطقة كانت في الماضي مليئة بالارهابيين اللصوص حتى نجح البوليس بالتخلص منهم منذ عشرين سنة تقريباً.

ومن وقت الى آخر. كان يبطىء سرعته كي تتمكن من رؤية الوديان المنحدرة والقمم البعيدة. في هذا المكان الضائع، المخصص فقط للنسور ... البرية، يبدو وجودهما عملية وقحة.

وبقيا مدة ساعتين يغوصان في هذه الصحراء. خفت اشعة الشمس الحارة واصبح الهواء منعشاً. ولما وصلا الى القمة، توقف كارلوس ليفتح صندوق السيارة وفي هذا الصمت المفاجىء رأت صوفيا من بعيد قطيع ماعز. انخفضت الشمس قرب المحيط وبعد قليل سيحل الظلام.

اعطاها السترة الكحلية وقال:

- عليك ان تضعي السترة من جديد.

فارتدى هو ايضاً سترة بنية وظلّ مدة غير قصيرة واضعاً يديه على وركيه يتأمل المنظر الرائع، والنسيم الناعم يلعب بشعره الاسود ونور شمس المغيب اعطى بريقاً برونزياً على وجهه. ولاحظت صوفيا ان كارلوس هو فعلاً ابن هذا البلد الخشن. وفي الحال عادت الى ذاكرتها جميع القصص التي حاكتها حول «حاكم السييراه»... وخاصة رحلة

الخيل في الجبل... هل هذا نذير ...؟

وكأنه لاحظ انه مراقب، نفض يديه وصعد الى السيارة. لكن، بدل ان يقلع كالعادة، جلس جانباً وراح يحدق مطولا بصوفيا.

سألته بصوت متوتر عن الطريق وطوله.

- كلا، ليس كثيراً. هل انت متعبة؟

- لا، ابداً. لكن هذه المنطقة منعزلة تماماً، اليس كذلك؟

ظل كارلوس صامتاً مدة طويلة حتى رمقته بنظرة سريعة. فنظر اليها بشغف قوي لم يسبق ان رأته هكذا من قبل، الآ في احلامها العديدة.

- الم يخطر ببالك ان ابناء عمي ليسوا سوى حجة وانني لم اعد مرتبطاً بوعدي؟

في احلامها الماضية كانت ترى انه من السحر ان تقع في ايدي رجل جذاب يحاول اغراءها. لكنها اكتشفت اليوم ان هذا الوضع ليس مريحاً ولا وجود للسحر فيه!

٥- البرقية المفاجئة

انحنى كارلوس واضعاً ذراعه حول كتفي صوفيا وقال باللغة الاسبانية:

- عندما أفكر انني لم أعانقك من قبل أرى الأمر مذهلا!

حاولت صوفيا ان تقول بلهجة غير مبالية وباللغة الانكليزية:

- لكنك عانقتني مرتين حتى الآن، يا كارلوس.

انتفض مندهشاً وقال:

- مرّتان؟

- تقريباً! مرة في المصعد في برشلونة. كما كنت على وشك ان تعانقني، عندما تعثرت في الطريق، ليلة دعيتنا الى العشاء.

بدأ يضحك ويشد قبضته ويقول:

- وهربت في هذا المساء، أليس كذلك؟ لكن، في ما يتعلق بعناق المصعد، فلم يكن سوى تحية صداقة. اما اليوم، فبالعكس...

اغمضت صوفيا عينيها. وفي هذه اللحظة بالذات، سمعت الحوافر تقرقع على الطريق. وبعد لحظات ظهر بغل وعلى ظهره فلاح راح ينظر اليهما بفضول ظاهر. لم يكن وحيداً وكان يلحق به شابان على ظهر بغلين. حياهم كارلوس، ثم أدار المحرك وقال:

- هناك من يعيش في هذه المنطقة، كما ترين.

غابت الشمس وحل الغسق وغاب السحر عن الهضبة. فجأة شعرت صوفيا بالخجل لأنها تجاوزت حدود مخيلتها وشكت بنية كارلوس.

وعلى الطريق بدأت المزارع البيضاء تبرز. سألت صوفيا:

- هل ما زالت السيدة ماك كيني في زيارة أبناء عمك؟

- كلا. لقد عادت الى اسكتلندا. وماري لويز في زيارة بعض الأصدقاء في الوقت الحاضر لكنك ستتفقين مع الآخرين بسرعة.

- هذا ما أريده.

- لا شك بالأمر ابداً.

بعد قليل خفف كارلوس سرعته ثم توقف بين ركيزتين عاليتين كتب عليهما «مزرعة كوبريل». هذه المزرعة هي ايضا مركز للضيافة، وتبعد مسافة طويلة عن الطريق العام. من الخارج كانت تبدو قلعة حصينة. النوافذ مزينة بقضبان الحديد السميك. والباب الكثيف مزيّن بمسامير ضخمة من الحديد المصقول.

هز كارلوس الجرس. وفي الحال انفتح باب صغير وسط الباب الكثيف، وانحنى خادم امام صوفيا قبل ان يشرح لكارلوس ان الجميع ذهبوا الى روندا لحضور حفلة عرس وانهم سيعودون عما

قريب.

وفي هذا الوقت كانت صوفيا تنظر حولها بفرح ودهشة. وسط المساحة الرخامية سبيل يهدر قرب شجرة تين ضخمة تحتل زاوية بكاملها. ومن الزاوية الأخرى سلّم يصل الى رواق شاسع وفيه ابواب عديدة لغرف عديدة.

وبعد فترة قصيرة تقدمت من صوفيا خادمة شابة ودلتها الى غرفتها في آخر الرواق، بينما اختفى كارلوس في الطرف المعاكس.

عندما خرجت صوفيا من غرفتها وهي تشعر بارتياح وانتعاش، رأت الثنية مزينة بالقناديل المضاءة. الأضواء تشع في الزوايا الأربع للساحة. وتحت الشجرة مدت طاولة كبيرة. وقرب السبيل يثرثر الأولاد بلباس انيق.

ولما رأى الأولاد صوفيا تهبط السلالم، سكتوا في الحال. وشاهدت صوفيا حينئذ كارلوس وهو يتحدث مع رجل أكبر سناً. فقال:

- دعيني أقدم لك ابن عمي هيلاريو!

قال الماركيز وهو يشد على يدها:

- انا سعيد ان استقبلك في كوبريل، يا آنسة، واتمنى لك اقامة ممتعة بيننا. طلبت مني زوجتي ان أعتذر منك لأنها لن تراك الآن، فهي مرهقة بعد هذا الحفل الذي حضرناه في روندا. انت تعرفين انها حامل، على ما أظن.

- نعم، أخبرني كارلوس بالأمر.

كان هيلاريو متوسط القامة وقوياً. شعره كستنائي ووجهه اسمر وذو تعبير صادق لا يتمتع بالنبل الاسباني حسب ما تصورته صوفيا. ومن السهل اعتباره فلاحاً وصياداً.

الأولاد عددهم ستة: اربعة صبيان وبنتان. كانوا يقفون في الصف بانتظار ان يقدمهم الوالد الى المربية الجديدة.

فقال لها كارلوس بتهكم بعد ان قام الوالد بالتعريف المتبع:

- ليسوا دائماً هكذا. انتظري قليلا قبل ان تعتبريهم في عداد

وبعد العشاء، ذهب الصغار الى النوم بسرعة، بينما بقي الكبيران في زاوية يلعبان الشطرنج.

قال الماركيز:

- للأسف، أنا مضطر الى العودة غداً الى ميفيل. وأنت، يا كارلوس؟ ما هي مشاريعك؟ هل تنوي البقاء هنا بعض الوقت؟

لم يرد عليه في الحال، فحبست صوفيا انفاسها. واخيراً قال:

- بامكاني البقاء بضعة أيام. ربما حتى الاسبوع المقبل...

- عظيم جداً.

بعد قليل، استأذن الماركيز وصعد لموافاة زوجته مصطحباً الولدين الكبيرين معه. وران صمت ثقيل.

فجأة سأل كارلوس:

- هل تركبين الخيل، يا صوفيا؟

- كلا، أنا آسفة جداً.

- ان ركوب الخيل يسمح بزيارة اماكن عديدة بعيدة ومنزوية وأحياناً قيادة سيارة الجيب تساعد على ذلك.

نهض وأطفأ الأضواء والقناديل ولم تعد الساحة مضاءة الا بنور القمر. ولما عاد نحوها، تساءلت صوفيا اذا كان ينوي اكمال الحديث الذي قطعه وصول الرجال الثلاثة على ظهر البغال، لكنه قال

بصوت عادي:

- النهار كان طويلا. ومن الأفضل لك ان تذهبي الى الفراش.

هل يجب ان تشعر بخيبة او بارتياح لأنه لم يعانقها؟

نهضت من مقعدها وسألته:

- أي ساعة يجب ان استيقظ صباح الغد؟

- باكراً على ما أظن. لكن لا تقلقي لهذا الأمر. اذا كنت نائمة، فستوقظك الخادمة في الوقت المناسب لتناول فطور الصباح. تصبحين على خير يا صوفيا.

- تصبح على خير، يا كارلوس.

استيقظت صوفيا في الصباح على صوت الأجراس. فقفزت من سريرها لتلقي نظرة من النافذة. رأت قطيع ماعز يرعى قريباً من التلة، وصاحب القطيع يغني أغنية شعبية. اتكأت صوفيا على درابزين الشرفة وراحت تصغي بفرح الى الأغنية الصاعدة في سكينة الصباح. هنا قلب اسبانيا!

فجأة سمعت صهيلا وصوت حوافر، فظهر كارلوس تحت الشرفة يمتطي حصاناً أسود رائعاً، ويعتمر قبعة قش عريضة، رمادية اللون. وبالصدفة، رفع عينيه نحو الشرفة. ولما رأى صوفيا، خلع قبعته وقال:

- صباح الخير، استيقظت باكراً جداً.

- صباح الخير، استيقظت على صوت اجراس الماعز.

تذكرت في الحال ان قميص نومها خفيف وشفاف فقد حاكتها لها عمتها من قماش الكتان القطني الناعم وزينتها بتخريم أنيق. وهذا اللباس لا يصلح لارتدائه والتحدث مع رجل مثل كارلوس! لكن فات الأوان. ومن الأفضل ان تتظاهر كأن شيئاً لم يكن...

انتظرت حتى ابتعد نحو التلال لتدخل الى غرفتها. ولشدة دهشتها لم يلاحظ كارلوس خفة ملابسها. آه، لم تعد تعرفه. . .

نظرت الى المرآة وتساءلت: ألست جذابة كفاية، في هذه القميص العنكبوتية، وهذا الشعر المشعث المنسدل بحرية على كتفي، وهذين الخدين الورديين. . .؟

هل يتصرف بلا مبالاة، فقط لمجرد الملاطفة والرقة؟ كيف تفسّر هذا التغيّر المفاجيء من قبل رجل أراد منذ فترة اغراءها؟

وفي الأيام التالية كان كارلوس يتصرف معها في غاية الأدب الى درجة اللامبالاة، كما لو كانت شقيقة او فتاة بسن العاشرة. هل كانت تحلم عندما فاجأت تعبير وجهه الشفوق قبل وصول الرجال الثلاثة على بغالهم؟

وبعد يومين، اصطحبها كارلوس مع الأولاد الى روندا، فأعجبت بهذه المدينة القديمة الجميلة، ذات المناظر الخلابة والبيوت البيضاء والكنائس العالية المبنية على اطراف الصخور الشاهقة. فبياض البيوت وسواد الدرابزين في الشرفات ولون القرميد، كلها تشكل لوحة متناسقة.

وعرفت صوفيا ان روندا مليئة بالحلبات والميادين القديمة. لكن لم يكن يهمها كثيراً ان تكون هذه المدينة مهد مصارعة الثيران. فكانت تفضل زيارة السوق حيث تتصاعد رائحة التوابل والبهارات، المختلطة برائحة الزيت والياسمين والأمواج. اشترى كارلوس من السوق كيس زعفران لزوجة احد اصدقائه الانكليز بسعر زهيد جداً. فأهداه البائع بعض الملبس الصغير المعطر بالنعناع.

ولما مروا امام بائع الخبز والحلوى، اشترى كارلوس للأولاد كيساً كبيراً بداخله خبز بشكل الأسهم، وتذكّر الأسهم التي يغرزها

مصارع الثيران في كتفي الثور.

وفي يوم آخر، ذهبوا الى «البورغو» وهي قرية صغيرة لا ذكر لها على الخريطة. وهناك رأت صوفيا للمرة الأولى «التولدوس» وهي خيام مبنية من نبات الحلفاء التي يصنع منها الورق عادة، ومعلقة فوق الشارع، من سقف الى آخر محدثة أماكن ظل، يجلس تحتها القرويون على مقاعد من القش ويثرثرون. ولدى مرور الأجانب، يسكتون وينظرون اليهم بعيون فضولية وثقيلة.

القرية المفضلة لكارلوس كانت مونتجاك، حيث المنازل البيضاء تتدرج على سفوح التلال حتى ساحة صغيرة ظليلة. وعلى أحد جوانب الساحة يوجد معمل لكوريتزو. اشترى كارلوس الكثير منها لأصدقائه الانكليز. وعلى الطرقات المرصوفة حملت النساء على رؤوسهن دلاء في طريقهن الى النبع لغسل الملابس.

وبعد زيارة مونتجاك، توجهوا الى غابة سنديان ليتناولوا الطعام في الهواء الطلق. كانت الطاهية قد احضرت سلة ضخمة مليئة بالطعام الجيد واللذيذ لكن كارلوس كانت له نظرة خاصة جداً في كيفية تحضير الطعام في الهواء الطلق وبعد قليل انتشرت رائحة ذكية من البصل والخبز المغمس بزيت الزيتون ودغدغت انف صوفيا. فقالت جوانا:

ـ تقول الخادمة انه من المخجل أكل الخبز والزيت، لأن ذلك خاص بالفقراء.

أجاب كارلوس وهو يقطع شرائح البندورة:

ـ هذا دليل نقص ببساطة. ما هو طيب بحد ذاته طيب للجميع، اغنياء كانوا أم فقراء.

كانت صوفيا تتأمله حالمة، فاشتبكت نظراتها. فقال كارلوس:

- أتريدين مشاركتي في وجبتي، يا صوفيا؟
- هل تكفي لاثنين؟
- أكثر مما يجب.

مر قطيع بقر أسود قربهم يرافقه راعيان يركبان حصانين رماديين. وشعرت صوفيا بافتتان لأنشودة الألوان الرائعة: العشب اليابس الذهبي، جذوع الشجر البرتقالية، الأوراق الخضراء والرمادية، السماء الزرقاء فوق رؤوسهم. هذه هي السعادة. لن تنسى ابداً هذا المكان...

احد الفرسان عاد الى الوراء وحيّاها. كان ينظر اليها بحدة ودفء مما جعلها تعود الى الواقع. اما كارلوس فلم يعد ينظر اليها هكذا... في كل حال، ما ان انتهى الغداء، حتى تمدد من دون كلمة ليأخذ القيلولة.

تفرّق الأولاد يلعبون. وبقيت صوفيا جالسة على كرسي صغير منخفض، تتأمل حالمة القمم البعيدة المحجوبة بضباب شفاف. ثم كارلوس فأدارت نظرها باتجاهه. ولما رأته ممدداً باهمال وثقة كالأولاد، شعرت فجأة برغبة كبيرة ان تتمدد قربه وتضع رأسها في تجويف كتفه. وكم هو جميل لو انه يضمها بذراعيه لتنام قربه...

- العيش مع الحبيبة في الهواء الطلق هي الحياة الكاملة والحرة.

فجأة قطع الصمت دوي محرك. فاستيقظ كارلوس وجلس. وبشكل شاحنة ضخمة تبرز اسبانيا العصرية في عنف من هذا الاطار الهادىء، الغريب عن الزمن.

ستتذكر صوفيا دائماً رحلتها في مغارة «بيلتيا» الواقعة فوق قرية بناوجان. لا تشبه هذه المغارة تلك التي رأتها في نيرخا عندما

تشاجرت مع مايك وجاء كارلوس ليبحث عنها... اما هنا، فلا وجود لمقهى، او لدكان سياحي او لمرآب واسع.

وللوصول الى هذه المغارة كان عليها ان تسلك طريقاً متعرجاً يصل الى سلالم محفورة في الصخر. سياج حديدي يسد فتحة داخل الصخرة. وأمام المدخل يجلس اسباني راح ينظر اليهما من بعيد مبتسماً وقال:

- آه، هذا انت يا دون كارلوس! مضت دهور على زيارتك الأخيرة!

صافحه كارلوس بشدة وقدم له صوفيا التي عرفت ان جد الرجل اكتشف هذه المغارة عام ١٩٠٥. ولما كان كارلوس صغيراً، زار المغارة عشرات المرات ويعرف المكان عن ظهر قلب. اعطاهما الحارس القناديل المضاءة بالغاز وتركهما يتجولان داخلها وحدهما من دون ان يضطر لمساعدتهما كدليل سياحي.

سحرت صوفيا بالرسوم الصخرية. احداها كانت تمثل بغلا والأخرى عنزة ذات القرون الضخمة. والأكثر ادهاشاً تلك التي تمثل سمكة كبيرة طولها متر وربع المتر، وحيث كانت القبة الصخرية سوداء، هناك كان اسلافنا القدامى يشعلون النار...

ولما وصلت صوفيا الى الحجرة التالية، شعرت بصدمة لرؤية هاوية عميقة.

- عمقها ستون متراً، هبطت فيها مرة بواسطة حبل طويل.

زعقت صوفيا وصرخت:

- هذا كلام غير صحيح...
- بل، صدقيني.
- آه، لن أهبط فيها مهما كلف الأمر.

رفع كارلوس المصباح ونظر الى صوفيا بامعان، ثم امسك يدها ببطء وقال:

ـ لا شك ان هذه الهاوية كانت تستعمل من قبل أسلافنا لرمي النفايات... هيا، لنخرج من هنا.

أطلقت صوفيا زفرة ارتياح كبيرة عندما خرجت الى الهواء الطلق.

قال لها كارلوس:

ـ لو كنت مكانك، يا صوفيا لرفضت زيارة الكهوف من الآن فصاعداً. لو كنت أعرف انك تخافين الأماكن المقفلة، لما جئت بك الى هنا.

ـ أنا آسفة. هذه حماقة من قبلي. لقد... شعرت فجأة ان السقف سينهار على رأسي.

ـ لا شك انك كنت تعانين خوفاً شنيعاً. يدك كانت رطبة وباردة. لا ضرورة للشعور بالخجل أمام أمر كهذا. فأنت تخفين أحاسيسك وهذا كبت رهيب.

وبرغم تفهم كارلوس ولطفه، كانت صوفيا تخشى ان تكون قد خفت شأناً بنظره... لا شك انها اعطته نظرة مخيفة وجبانة...

وفي روندا التقت صوفيا للمرة الأولى بانطونيا، عندما كانت تتأمل منظر مضيق جبال غوادالقين. كانت الفتاة السمراء ترتدي سروالا ابيض وقميصاً اصفر وتحمل حقيبة يد بيضاء معلقة بكتفها. وكانت نظارتاها تلمعان تحت أشعة الشمس عندما هتفت:

ـ كارلوس!

ـ مرحباً، انطونيا! كيف حالك؟

تكلم معها باللغة الانكليزية فأجابته:

ـ كنت ضجرة حتى الموت... وأنت جئت في الوقت المناسب!

هل ستبقى هنا وقتاً طويلا؟ لا تقل لي انك عائد في الغد؟

ـ لا، لا، سأبقى هنا بضعة أيام. صوفيا، أقدم لك انطونيا بويبرا، صديقة طفولتي.

تصافحت الفتاتان وشعرت صوفيا ان انطونيا كانت تفضل لو التقت كارلوس من دونها ومن دون الأولاد المتعلقين بأذيالها.

ـ خلال كل الوقت الذي امضيته هنا، كان المنزل مليئاً بالأعمام والخالات فضجرت حتى الموت. رحلوا الآن وعاد أبي ينغمس من جديد في الكتب. تعال ودعني ألهو يا كارلوس. متى بامكانك تناول العشاء عندنا؟

اخرجت مفكرتها وقالت:

ـ انا مأخوذة مساء اليوم وفي الغد ايضا... نهار الجمعة، هل هذا ممكن؟

ـ نعم، لكنني افضل ان اكلم لويزا بالأمر، لعلها قامت بمشاريع اخرى. سأرسل لك كلمة بهذا المعنى.

قطّبت انطونيا حاجبيها وقالت:

ـ صحيح؛ الهاتف لا وجود له في المزرعة. كيف بامكان الماركيز وعائلته ان يعيشوا من دون هاتف؟

ـ انها الوسيلة الوحيدة لهيلاريو ان يستريح ويسترخي عندما يريد الهرب من كثرة أعماله. في كل حال، البرقيات تصل بسرعة بواسطة ساع خاص.

ـ اني أشعر بالشفقة على لويزا المقطوعة عن العالم، وعن الأصدقاء...

وفي طريق العودة شرح كارلوس لصوفيا قائلا:

ـ والد انطونيا دبلوماسي متقاعد. انه يكرس وقته الآن في مجموعة

الكتب المجلدة.

ويوم الجمعة، قال لها كارلوس بعد ان انتهى من الغداء:

- على فكرة، شرحت لانطونيا في رسالتي انك حفيدة رجل يحترف جمع الكتب النادرة. فسيفرح السيد يوبيرا بالتعرف اليك.

- لكنني لا أعرف شيئاً عن المجلدات!

- تعرفين اموراً كثيرة، اكثر من جميع اصدقاء انطونيا!

أضافت الماركيزة تقول:

- بيتهم رائع يشبه قصراً صغيراً. وأثاثهم جميل ونادر...

كانت صوفيا ترتدي فستاناً عندما دخلت لويزا الى غرفتها وصرخت وهي ترى الفستان الأصفر الحريري:

- آه، كم هو جميل ثوبك! انه بسيط ويدل عن ذوق رفيع. أفضّله عن الفساتين المعرّقة التي ترتديها عامة الانكليزيات في السهرات.

اضافت لويزا تقول:

- كنا نعتقد لفترة طويلة ان كارلوس سيتزوج من انطونيا بوبيرا. لكن كارلوس كان متشدداً وكثير التطلب. لا تكفيه امرأة جميلة وبصحة جيدة. لا، انه يريد شيئاً آخر ايضاً. ماذا؟ لا اعرف. ربما انت تفهمين اكثر مني، يا صوفيا؟

- انا؟ لا... لماذا؟

رفعت لويزا كتفيها وقالت:

- ربما لأنه نصف انكليزي. لأنني كما اعرف، فالشعب الانكليزي يتزوج عن حب... هل تؤمنين بالحب، يا صوفيا؟

- آه، نعم. اؤمن بالحب الحقيقي، الذي يشمل العقل والجسد... لا اعتقد ان كارلوس...

توقفت عن متابعة الكلام لسماعها طرقاً على الباب. فقالت:

- ادخل.

شق كارلوس الباب وسألها:

- هل انت جاهزة؟

قالت لويزا:

- انا مع صوفيا وبامكانك الدخول.

- آه، تصورت انك سترتدين الثوب الابيض والدثار المخملي الاخضر، كما كنت في برشلونة.

سألت صوفيا لويزا:

- هل يجب ان ارتدي الثوب الطويل؟

نظرت لويزا الى كارلوس وقالت:

- لم تقل انها سهرة كبيرة، يا كارلوس. لقد تصوّرت انكما المدعوان الوحيدان...

- نعم، اظن ذلك.

- اذن، هذا الثوب الاصفر رائع لهذه المناسبة.

اضاف كارلوس:

- وساحر ايضاً. لم اكن انوي النقد او... لكن...

نظر الى ساعة يده وقال:

- يجب ان نذهب الآن.

ولما اصبحا في السيارة، قال كارلوس:

- ليس هذا الثوب هو الذي لفت نظري، انما ابتسامتك... في تلك السهرة...

وخلال الطريق كان يحدثها عن اسبانيا وامله في ان يلعب هذا البلد دوراً مهماً في السوق الاوروبية المشتركة. لم يسبق ان تحدث عن هذا الموضوع، لا في برشلونة، ولا في برج المورز. فاندهشت

صوفيا للأمر وفرحت له.

ومنزل آل يوبيرا الرائع كان يطل على قرية صغيرة قريبة من روندا. داخله متحف حقيقي.

استقبلها آل يوبيرا بدفء ثم أخذ صوفيا في الحال الى مكتبته الضخمة ليريها كنوزه.

هل دعاها كارلوس للمجيء معه ليكون اكثر حرية في مغازلة انطونيا؟

وبعد عشر دقائق جاءت انطونيا الى المكتبة وقالت:

ـ آه، يا ابي، الا تخجل لأنك استأثرت بالآنسة لينغوود، حتى انك لم تقدم لها شراباً الى الآن! العشاء جاهز.

وبالرغم من احتجاجات والدها، توجهت انطونيا الى غرفة الطعام. ودار الحديث حول مجموعة الكتب عند الرجلين، وكانت صوفيا تصغي بشغف، محتفظة بعدم البوح عن اهتمامها بانتقاداتها وتعليقاتها.

وفي طريق العودة الى المزرعة، قال لها كارلوس:

ـ اخشى ان تكون هذه السهرة قد ازعجتك حتى السأم... لو كنا قرب الساحل، لأخذتك الى مرقص في مكان ما. لكنه لا يوجد في الضواحي ناد راقص كما يجب، وحتى في روندا بالذات.

صرخت صوفيا محتجة:

ـ لم اسأم لحظة واحدة، وارجوك ان تصدقني! هل يسكن اصدقاؤك هنا طيلة السنة، ام خلال الصيف فقط؟

ـ خلال الصيف فقط. لكنني اعتقد ان دون سلفادور لن يغادر قصره هذا متى تزوجت انطونيا؟

ـ هل هي مخطوبة؟

ـ نعم، لكن الامر لم يصبح رسمياً بعد. وجدت اخيراً الرجل الذي يليق بها. مع انه لا يشاطر حب والدها للكتب. بنظرها، محترف واحد في العائلة، يكفي!

ـ بعض النساء يقبلن ان يكون ازواجهن من محترفي الكتب النادرة. وهذه كانت حال جدتي.

ـ هذا استثناء للقاعدة. فمعظم النساء يشعرن بغيرة من هذا الشغف. وهدف الهاوي ان يقع على امرأة هاوية مثله، وهذا نادر جداً.

كانت صوفيا تفكر بجواب عندما سمعت كارلوس يطلق شتيمة وينعطف بشدة جانباً كي يتحاشى اصطداماً بسيارة غير مضاءة برزت امامه وسط الطريق بسرعتها الجنونية.

وباعجوبة، لم يكن للصخر وجود في طريق انعطاف السيارة التي غاصت في العشب والاشواك وتوقفت بعد انتفاضة اخيرة.

سأل كارلوس في الحال:

ـ هل اصبت بجراح؟

اجابت بصوت متقطع:

ـ لا... لا...

ـ هذا النوع من الناس يشكل خطراً كبيراً على السلامة. كان بامكانهم قتلنا ببساطة. آه، لو كنت قرب الهاتف، لطلبت من شرطة المنطقة الالتفاف لملاحقتهم!

ـ لماذا لم يشعلوا اضواء السيارة؟

ـ الله وحده عالم بالامر. لا شك انهم سكارى ليقودوا بهذه السرعة الجنونية. كل ما اعرفه، هو اننا محظوظون اذ تمكنّا من الخروج سالمين.

كان على حق. فاحدى العجلات كانت ملتوية كلياً، وبحاجة لاستدعاء فريق التصليح.

سألته صوفيا:

- هل ما تزال بعيدين عن المزرعة؟

- ٢٥ كيلومتراً تقريباً من المزرعة، و١٥ كيلومتراً من منزل آل بوبيرا... يجب ان نطلب من هذه المزرعة القريبة من هنا ان تؤوينا... لن تتمكني من المشي بسهولة في هذه الاحذية العالية... انتظري...

فتح صندوق السيارة وقال:

- صباح اليوم ترك ستيفان كل معدات كرة المضرب داخل الصندوق. فسترتدين حذاءه ربما يكون واسعاً، لكنه افضل من حذائك العالي الكعب. اجلسي سأساعدك على انتعاله.

اطاعت صوفيا بصمت وهي ما زالت تحت الصدمة العنيفة. ركع ليساعدها على خلع صندلها المقطع. فرأت الدم ينزّ من صدغه، فصرخت تقول:

- لكن، انت مجروح؟

- انا، لا، ابداً!

- بلى، يا كارلوس! انظر.

لمست خده النحيل وأرته اطراف اصابعها الملطخة بالدم.

- هذا جرح بسيط، لم اشعر به.

اخرج منديلا من جيبه ومسح وجهه. ثم قال لها:

- اعطني يدك لأمسح اصابعك والا اتسخ فستانك... لكنك باردة يا عزيزتي! ارتدي سترتي اذن!

وبلحظة سريعة خلع سترته ووضعها على كتفي صوفيا فقالت:

- لا اشعر بالبرد. لا شك ان ذلك ناتج عن الانفعال والصدمة. وبعد قليل سأشعر بتحسن فلا داعي ان...

- لا تناقشي ارجوك.

مشيا حوالى ثلاثة كيلومترات عبر الحقول قبل ان يصلا الى المزرعة البيضاء تحت ضوء القمر. لم يترك كارلوس يد صوفيا التي كانت تعود الى روعها.

- هل ستطلب من صاحب المزرعة ان يعيرك سيارته؟

- ربما لا يملك سيارة! سنضطر ان نقضي الليل هنا. هيلاريو سيستيقظ باكراً ومتى لاحظ غيابنا، سيبدأ في البحث عنا وسيجدنا من دون شك.

لا اثر لأي شعاع نور من خلال النوافذ الخشبية المقفلة. طرق كارلوس الباب عدة مرّات. وبعد دقائق طويلة، انفتحت نافذة فوق رأسيهما وظهرت بندقية مصوّبة اليهما. لكن عندما شرح كارلوس سبب وجودهما، اختفت البندقية، وبدأت تسمع اصوات الاقفال. اخيراً انفتح الباب.

كان الرجل ذا لحية بيضاء طويلة تخفي خدين غائرين ومجعدين. وبدأ يتكلم الاسبانية بلهجة لم تتمكن صوفيا من فهمها.

اضاء الفلاح قنديلا على الغاز واخذهما الى غرفة في الطابق الاول ولشدة دهشة صوفيا كان السرير واسعاً يحتل وسط الغرفة والجدران مليئة باللوحات الدينية.

فتح المزارع العجوز باب الخزانة وقال:

- خذي ما تريدينه من شراشف وأغطية.

فشرح كارلوس لصوفيا بالانكليزية ثم اضاف:

- توفيت زوجته. وهو لا يعرف شيئاً حتى تأتي خادمة من القرية

لتهتم بهذه الامور.

فتح المزارع درجاً وشرح لها كارلوس ما قاله:

ـ انه يقدم لك قميص نوم كانت تملكها زوجته... هل تعتقدين انه باستطاعتك النوم في هذا الجوّ؟

ـ على الأقل، في هذا المناخ، الفراش ليس رطباً. غرفتك ربما جوّها رهيب اكثر...

ـ من يعلم، ربما عليّ ان اتقاسم سريره؟

وبعد ان اشعل الضوء، تمنى المزارع لصوفيا ليلة سعيدة وخرج يرافقه كارلوس.

كانت الشراشف تعبق فيها رائحة زهرة اكليل الجبل. وقميص النوم المزينة بالدانتيل على طرف الاكمام وحول العنق، كانت تغلف الفتاة من قدميها حتى ذقنها.

فتحت النوافذ الخشبية وراحت تتنفس بملء رئتيها الهواء المنعش، وعندما انتفضت لسماعها طرقاً على الباب. هتفت:

ـ ادخل.

دخل كارلوس حاملا بيده فنجاناً ساخناً:

ـ المزارع اعدّ لك فنجان زهورات. اظن انه زهر البرتقال.

اجابت صوفيا وهي تضع الفنجان على الطاولة:

ـ انه ساخن جداً، سأدعه ليبرد قليلا قبل ان احتسيه. لقد فتحت النوافذ الخشبية... لأنني كنت اكاد اختنق...

ـ وهذا القميص الواسع الطويل ليس معداً لمثل هذه الظروف.

ـ ماذا سنفعل في حال لم يجدنا ابن عمك صباح الغد؟ هل يمرّ الباص من هنا؟

ـ لا تقلقي. سيصل هيلاريو الى هنا حتى قبل ان تستيقظي.

ـ هذا اذا اعتقد بوجود حادث، آه، طبعاً... لكن، ربما ظن... ان هناك شيء آخر...

ـ ماذا مثلا؟

ـ اوه... انه لا يعرفني... وبامكانه جيداً ان يتخيّل انه... اننا نحن...

ـ هذا ما تفكرين فيه، انت؟

ـ لم اقل هذا... لكن...

ـ اذن انت لن تثقي بي ابداً! بامكاني ان اتصرّف معك مثل اخ لمدة شهور عديدة، لكنك ستظلين دائماً متحفظة وباستعداد للدفاع...

ـ هذا غير صحيح.

لكنه لم يسمع من شدة الغضب.

ـ هذا الفلاح يتصوّر انك خطيبتي. يبدو انه شامخ بأنفه ومتكلّف. اذا لم يرني عائداً الى المطبخ بعد بضع دقائق، سيصعد الى هنا حاملا بندقيته ويخرجني بالقوة. اذن، بانتظار ذلك، ما دمت قد قررت عدم الثقة بي، فمن الافضل لك ان تبرري خوفك...

جذبها بشدة بين ذراعيه وراح يعانقها بشغف كأنه يعرفها ويحبها من زمن بعيد وقد التقاها بعد اشهر عديدة من الفراق...

وقبل ان تستعيد صوفيا وعيها، دفعها بعنف وخرج صافقاً الباب. سمعته يهبط السلالم ويصفق باباً آخر. ثم عمّ الصمت الكامل.

وفي اليوم التالي ايقظتها اشعة الشمس التي خرقت وجهها. ولما نظرت الى نفسها وشاهدت قميص النوم، تذكرت كل شيء. نظرت

الى ساعة يدها: التاسعة.

قفزت من السرير وأول ما فكرت به ايجاد المرحاض او الحمام. ارتدت ثيابها بسرعة ومشطت شعرها ونزلت.

سمعت حديثاً بالاسبانية اوصلها الى داخل المطبخ. فتحت الباب المشقوق. ولدى دخولها، نهض المزارع وأحد خدم السيد هيلاريو. فتحت صوفيا عينيها المندهشتين وقالت بعد ان حيت الرجلين:

ـ اين دون كارلوس؟

ـ ذهب الى المطار، يا آنسة. طلب مني دون هيلاريو ان آتي لآخذك الى المنزل. ستجدين ثيابك وكل امتعتك في هذه الحقيبة.

ـ شكراً. لكن... لا أفهم. متى ذهب دون كارلوس؟ ولماذا ذهب الى المطار؟ وأي مطار؟

ـ مطار مالاغا، يا آنسة. لا اعرف المزيد. اظن ان دون هيلاريو سيشرح كل الأمر بالتفصيل. ولا يمكنني ان اقول لك في اي ساعة ذهب. لقد تلقيت الاوامر بانتظار نهوضك من النوم.

ـ فهمت...

ذهب كارلوس من دون ان يودعها! هذا أمر لا يصدق! اهذه هي نهاية المطاف؟

ـ هل بامكانك ان تسأل صاحب المنزل اين هي المراحيض؟

بعد استشارة المزارع اجابها الخادم:

ـ المراحيض صغيرة جداً وتقع خلف المزرعة، في حجرة مبنية من الواح الخشب السميكة. سيدلك العجوز الى مكانها. وفي هذا الوقت سآخذ دلواً وماء ساخناً الى غرفتك.

بعد ساعة كانت صوفيا قد وصلت الى المزرعة. لم يكن هناك احد. وحتى عودة الماركيز وعائلته من روندا، ظلّ القلق ينخر اعصابها.

قال لها هيلاريو لدى عودته:

ـ لا شك انك ستفرحين اذا علمت ان المسؤولين عن الحادث قد اعتقلوا. كانوا يهرّبون المخدرات. سيسجنون على الاقل مدة ست سنوات.

ـ لا شك ان البوليس يريد التحقيق معنا. وكارلوس هل سيعود للشهادة؟

ـ طبعاً. لكن في الوقت الحاضر، عنده اعمال طارئة تتطلب وجوده هناك. يا شعب مايوركا المساكين!... كان حظهم انحس من حظكما، امس...

قالت صوفيا من دون ان تفهم شيئاً:

ـ شعب مايوركا؟

قالت الدونا لويزا وهي تنظر الى الفتاة:

ـ لا يمكن لصوفيا ان تكون قد عرفت ما حدث، يا هيلاريو، ما بالك! علمنا امس، في آخر السهرة ان حادثاً قد حصل مع خمسين سائحاً انكليزياً كانوا في الباص متوجهين الى زيارة معمل اللؤلؤ. وكارلوس صاحب الفندق حيث ارادوا النزول، فسافر للحال ليساعدهم. سيشعرون بامان وارتياح اذا ما زارهم في المستشفى، خاصة انه يتكلم الانكليزية.

عاد الماركيز ليقول:

ـ عندما وجدت كارلوس في المزرعة، صعدنا الى غرفتك لنعلمك بالامر، لكنك كنت تنامين بعمق، ولم يرد كارلوس ازعاجك

وفي الواقع، لم تفهم الاّ شيئاً واحداً، وهو ان رحيل كارلوس المفاجيء ليس له علاقة بما حصل لهما مساء امس في غرفتها، مباشرة قبل النوم. وشعرت بارتياح كبير!

قالت في لهجة قلقة:

ـ لكنه لم ينم ما فيه الكفاية.

ـ آه، لا شك انه يعوّض في الطائرة. يعرف كارلوس كيف يستريح عند الطلب. ولو حصل ذلك مع غيره لانزعج لأن سيارته قد تحطمت او صدم بما حصل. اما كارلوس، فلا يحب التوقف عند مشاكله. يكفي ان يتصفح كتاباً من كتبه العزيزة على قلبه لينسى ما تبقى.

راحت تسترجع بمخيلتها تصرّف كارلوس الشهم، عندما كان بينها وبين البندقية المصوبة اليها من قبل مزارع عجوز غير واثق. . . ما زالت تسمع حتى الآن صوته العذب عندما قال لها: «ولكنك باردة، يا عزيزتي!» وبالاضافة الى كل هذه الامور، فهي تتذكر عناقه، هذه اللحظات المضطربة التي لا توصف. وفي الوقت الذي كادت فيه ان تسترجع وعيها لتضمه بدورها بين ذراعيها، كان قد دفعها بعنف وخرج من الغرفة كالمجنون. . .

وبعد يومين على الحادث وصل شرطي الى المزرعة لأخذ شهادة صوفيا. وكان يجب انتظار يومين آخرين قبل الحصول على اخبار من كارلوس. ولم يتكلم الاّ عن الحادث الذي تعرّض له الباص الذي كان ينقل السيّاح الانكليز. ولم يشر برسالته المقتضبة عن الحادث الذي تعرّض له مع صوفيا، او عن صوفيا، او عن تاريخ عودته. . .

وأخذت الايام تبدو طويلة لصوفيا التي لم تتلق بطاقة بريدية

واحدة منه. هل نسيها؟ هل ندم على تصرفه؟ هل سيعود؟ اسئلة عديدة كانت تعذب الفتاة بصورة مستمرة.

وبعد اسبوع، عندما كانت في غرفتها تكتب رسالة الى عمتها روزا في وقت القيلولة، جاءت الخادمة لتخبرها ان دون هيلاريو يريد ان يراها في الحال في الصالون التابع لجناح الماركيزة.

فوجئت صوفيا بالخبر، وارتدت فستاناً وتوجهت بسرعة الى جناح لويزا. ولما رأت التعبير الحزين على وجه الماركيز وزوجته، والتلغراف في يد هيلاريو، انتابها خوف شديد فصرخت بصوت مخنوق:

ـ يا الهي. . . كارلوس؟

قالت لويزا وهي تنهض من مقعدها:

ـ لا، لا، يا صوفيا، الخبر لا يتعلق بكارلوس! انها اخبار سيئة من انكلترا.

تناولت البرقية من يد زوجها ومدتها الى صوفيا التي قرأت ما يلي:

ـ جدك في حالة مرضية خطيرة يعتقد الاطباء ان شفاءه مستحيل. هل بامكانك الحضور؟

الله وحده يعرف كم كانت صوفيا تحب جدها، وكم كان خبر نهايته تمزيقاً رهيباً لها. . . لكن لو حدث شيء كريه لكارلوس، لكان الامر فاجعة لا توصف. . .

اجلستها لويزا لشدة ارتجافها وقال لها الماركيز:

ـ سنفعل كل ما في جهدنا ان نجد لك مكاناً فارغاً في رحلة مالاغا- لندن لهذا المساء.

وفي منتصف الليل، تصلين الى منزل جدك.

- والاولاد؟ ماذا ستفعلون؟

اجابت المرأة بلطف ومحبة:

- لا تقلقي من اجلي سنتدبر امرنا. المهم ان تعودي الى عائلتك في هذا الوقت العصيب. سيأخذك هيلاريو الى مالاغا. . . من المؤسف ان كارلوس ليس هنا، لكان اوصلك حتى منزل جدك.

- في كل حال، لقد تعودت السفر وحدي.

- لا أشك في الامر. لكن، الاّ تعتقدين انه لو كان كارلوس معك لكان اهتم بك كثيراً؟

- نعم، بكل تأكيد.

تذكرت صوفيا رحلتها الى السييرا والاهتمام الزائد الذي احاطها كارلوس به. نعم، لا شك انها تفرح كثيراً لو يرافقها كارلوس في سفرها الى لندن. . . لكن، من الآن فصاعداً، يقول لها ان عليها ان تتكل على نفسها. فلن تجد احداً تستند اليه. . . هل بامكانها ان تنسى كارلوس؟

وصلا الى المطار نصف ساعة قبل موعد اقلاع الطائرة وكان من المستحيل الاتصال هاتفياً بالعمة روزا لأعلامها بمجيئها.

- لا تقلق عليّ، يا هيلاريو. الطريق من مطار غاتويك ليست معقدة.

كانت الشمس تغيب عندما اقلعت الطائرة حاملة السيّاح ورجال الاعمال. وبحزن وصمت جلست صوفيا في المقعد واغمضت عينيها.

وبينما كانت الطائرة تحلّق فوق الساحل باتجاه الشمال، عادت الى ذاكرتها ابيات الشاعرة الاسبانية، روزاليا كاسترو، التي كتبت تقول:

«ولا في اي مكان على هذه الارض، يا ايتها السعادة، بامكاني ان اجدك بعد الآن. غير انني اعرف انك موجودة ولست فقط حلماً جميلاً».

٦ـ بطرف كتفه أغلق الباب

«الآنسة صوفيا لينغوود، التي وصلت من مالاغا في الرحلة رقم ١٠٣، يرجى منها التوجه الى مكتب الاستعلامات حيث تنتظرها رسالة طارئة. الآنسة صوفيا لينغوود، التي. . .».

أعلمها مكتب الاستعلامات ان السيد ادوارد هامتون سيوافيها بعد ربع ساعة.

تمتمت صوفيا بصوت خفيض: «لا شك ان هيلاريو اتصل بعمتي روزا واعلمها بأمر وصولي.

جلست صوفيا متسائلة: من يكون هذا الرجل المجهول؟

في الطائرة، قرأت مرّات عديدة آخر رسالة استلمتها من جدها. كان خطه واضحاً واسلوبه مرحاً وتكاهياً كالعادة. لا شيء يشير الى

نهايته المحتمة.

فجأة سمعت اسمها، فرفعت عينيها واذا برجل ينظر اليها من وراء نظارتيه المستديرتين. كان شعره الرمادي كثيفاً ويدلّ على عمر يتراوح بين ٤٥ و٥٠ سنة.

فقالت صوفيا:

ـ نعم، انا صوفيا لينغوود. وانت السيد هامتون، اليس كذلك؟

ـ نعم، نادني ادوارد. انا صديق قديم لعمتك وهي لم تشأ مغادرة غرفة جدك، فطلبت مني ان آتي مكانها لأجلبك.

ـ كيف حال. . . جدي؟

ـ ليس قوياً. لا شك ان قلبه كان في حالة سيئة منذ شهور عديدة. لكنه اخفى الامر على عمتك روزا حتى الاسبوع الفائت عندما وجدته منهاراً في اريكته. فهرع الاطباء ووضعوا له العقاقير. لكن، للأسف، لم يبق امامه الاّ ساعات معدودة. . .

قالت صوفيا بصوت مرتجف:

ـ نعم. هذا ما فهمته من البرقية. انا. . . انا. . . لا يمكنني ان اتصوّر المنزل من دون جدي. . .

تناول ادوارد هامتون الحقيبة ولحقته الفتاة الى المرآب. ولحسن حظها انها وجدت فيه الرجل الذي يشعر الغريب قربه بالراحة والارتياح. وفي الوقت الذي كان يدخل فيه المفتاح ليدير المحرك، تذكرت صوفيا فجأة سيارتها وصرخت باستغراب غير ارادي فسألها:

ـ ماذا حدث؟ هل نسيت شيئاً داخل الطائرة؟

ـ لا. الامر افظع من هذا بكثير. نسيت سيارتي في غرناطة. لم افكر بالامر قبل الآن. يا الهي، ما هذه القصة!

قال ادوارد بهدوء:

- لا تقلقي الآن. سنجد طريقة لأيصالها الى هنا. لكن كيف تكون السيارة في غرناطة وانت كنت في روندا؟

شرحت له صوفيا الامر وقالت:

- يجب ان اجد احداً ليعيدها الى انكلترا.

- أليس من الأفضل ان تذهبي بنفسك لجلبها؟ الا ينتظر عودتك من تعملين لديهم؟

- لا. . . لا اعتقد. كنت احلّ مكان مربية الاولاد التي ذهبت الى المستشفى لأجراء عملية طارئة وستعود لاستئناف عملها من جديد بعد اسبوع. اما عملي في المخيّم. . . فلست مصرّة على استعادته. . .

- الم تحبي اسبانيا؟

- بلى، لكن الأماكن السياحية، حيث بامكاننا ان نجد عملاً دائماً مكتظة وخاصة في موسم الصيف.

- اذا كنت تحبين الهدوء والسكينة، لماذا لا تذهبين الى منزلي، في نيوزيلاندا.

- لكن، ما الذي جعلك تأتي الى انكلترا؟

- جئت الى انكلترا منذ ثماني سنوات، بعد وفاة زوجتي. شعرت بحاجة لان ابتعد عن كل ما يذكرني بالماضي. وبما انني مهندس بناء، لم اجد صعوبة في ايجاد عمل يشغلني ويبعدني عن وحدتي. لكن، منذ وقت وأنا اشعر بحنين الى بلدي. هنا احس بأن جذوري اقتلعت.

- هل عندك اولاد؟

- نعم. اثنان. لكنهما غادرا المنزل. فابني يعمل في الولايات المتحدة الاميركية، وابنتي تزوجت من شاب اسكتلندي وتعيش في ايطاليا.

بعد صمت قصير، اضاف يقول:

- التقيت بعمتك منذ أربع سنوات عندما طلب منها حياكة قطعة لدار المعلمين العليا، حيث كنت المهندس المشرف على المبنى.

- هل تسكن قربنا؟

- في عطلة الاسبوع فقط. وفي بقية الايام اسكن في لندن.

وما ان وصلوا قرب المنزل حتى خرجت روزا ستيل في الحال الى عتبة الباب فخرجت صوفيا من السيارة وارتمت بين احضانها وسألتها بقلق:

- كيف حاله؟

همست العمة وهي ترافقها الى البهو:

- مات لتوّه.

اوصى السيد لينغوود المنزل وعائداته الى ابنته روزا والكتب الى صوفيا، مع اشارة لصوفيا الاّ تتردد في بيعها اذا احتاجت يوماً ما الى المال.

كم كان حزيناً بالنسبة الى صوفيا ان تخسر جدها في هذه الفترة التي كانت ترغب فيها من كل قلبها، ان تفتح له قلبها وتحدثه عن كارلوس. وبالرغم من محبتها القوية لعمتها، لم تصمم على ان تكشف لها الأمر. الأيام التالية، كانت صوفيا تقضي ساعات طويلة متقوقعة قرب نافذة الصالون، تملأ نظرها بهذه الغرفة الدافئة التي كانت تجسّد دائماً «منزلها الحميم». والتي كانت تبدو الآن فارغة. . . كالموت.

وبعد يومين على الدفن، كانت صوفيا في المطبخ تحضّر وجبة باردة عندما دخلت روزا وقالت في الحال:

ـ ادوارد طلب يدي.

اندهشت صوفيا والتفتت الى عمتها. فمنذ وصولها نسيت ان تفكر بالسبب الذي من اجله ظلت عمتها تكتم سرّ هذا الصديق الذي تعرفت اليه منذ وقت طويل. وقبل ان يتسنى لصوفيا ان تتكلم، اضافت روزا قائلة:

ـ احبه منذ وقت غير قصير، لكنني لم اكن اكيدة من عواطفه تجاهي. الا ان الامر تجاوز الصداقة البسيطة، التي تنشأ عادة بين انسانين وحيدين.

ـ هل كنت تشعرين بالوحدة كثيراً؟

كانت عمتها تبدو لصوفيا كأنها كانت سعيدة بقدرها.

ـ ليس تماماً. . . قليلا في بعض الاحيان. لو لم يسبق ان تزوجت من قبل، ربما لما شعرت بهذا النقص الى هذا الحد هناك عملي ووجودك معنا وانت تعرفين ذلك، يا حبيبتي. لكن بالرغم من هذا كله، الوحدة ثقيلة احياناً، خاصة بعد رحيلك.

ـ متى طلب ادوارد يدك؟

ـ منذ لحظة. انه يحبني منذ وقت بعيد. لكنه كان يشك ان اكون مستعدة لترك والدي.

ـ هل بسبب جدي لم تتكلمي عنه في المنزل؟

ـ نعم. لكان جدك شك بحقيقة عواطفي تجاه ادوارد، ولشعر انه يشكل ازمة لمستقبلي. ولم اكن اريد ذلك مهما كلف الامر.

ـ كان بامكاني الاهتمام به، بكل فخر واعتزاز.

ـ اعرف ذلك، يا حبيبتي. لكن ليس من الاخلاق ان افرض عليك مسؤولية كهذه. فانت بحاجة الى الحرية. . . ككل الشباب بسنك. . . قبل ان تربطي نفسك.

ـ ومتى تنويان الزواج؟

ـ اذا سمعت ما يريده ادوارد، لتزوجت في الحال. يقول اننا انتظرنا ما فيه الكفاية. لكن هناك مشكلة اساسية. . .

اختفى صوتها فرددت صوفيا تقول:

ـ مشكلة؟

ـ ينوي ادوارد العودة الى نيوزيلندا. فهو ارمل كما تعرفين وترك بلاده كي ينسى ما يذكره بزوجته.

ـ الا تحبين العيش في نيوزيلندا، يا عمتي روزا؟ هل تخافين عدم العثور على عمل لك؟

ـ ساحب البلد كثيراً، انا اكيدة من ذلك. اما بالنسبة الى عملي، فلن يكون هناك مشاكل بهذا الخصوص. لكن ما يشغل بالي، هو انت، يا حبيبتي. ماذا سيحل بك؟ نريد كثيراً ان تأتي معنا، ما رأيك؟

فوجئت صوفيا بالأمر ولم ترد. فقالت روزا باصرار:

ـ بامكانك، على الأقل، ان تجربي البلد لمدة سنة واحدة. أنا اعرف انك فتاة تعرف ان تدبّر امرها على أحسن وجه. لكن ان اتركك وحدك، من دون احد يهتم بك فهذا امر غير وارد. لو كنت متزوجة، او خاطبة، لتغيّر الامر!

اخيراً قالت صوفيا:

ـ ربما آتي معكما. لكنني لن اعيش على نفقتكما. بامكاني ان اجد وظيفة هناك والافادة من مباهج الاسفار. ولن اكون بعيدة عنكما!

شعرت العمة بارتياح وقالت:

ـ هل بامكانك زيادة السلطة، يا عزيزتي سيتناول ادوارد الغداء معنا. . . اذن. . . سأتصل به هاتفياً؟

بعد الغداء، راحت صوفيا تتنزه على طول الشاطىء القاحل، كان الجوّ بارداً جداً. والريح الشمالية تعصف بالرمال. يا لدفء اسبانيا. . . وكم هو بعيد! تهيأ لصوفيا انها تعيش في هذا الجوّ الرمادي البارد منذ دهور عديدة! وبدأت سمرتها الجميلة بالشحوب. . .

لما عادت الى المنزل وجدت روزا وادوارد يحتسيان الشاي.

فقالت روزا وهي تقدّم الشاي لأبنة اخيها:

ـ يفضل ادوارد، بعد تفكير طويل، ان اؤجر المنزل بدلا من بيعه.

اضاف ادوارد قائلا:

ـ أسعار البناء تتصاعد بشكل ملموس، يوماً بعد يوم. وروزا ليست بحاجة الى هذا المال في الوقت الحاضر. لماذا لا تحافظ على المنزل وتؤجره؟ هكذا، بعد سنة او سنتين ان كنت تريدين العودة الى انكلترا، يا صوفيا، فستجدين سقفاً تأوين اليه.

وفي المساء اصرّ ادوارد على اخذهما للعشاء خارج المنزل. حاولت صوفيا ان تقنعه بأنها تفضّل البقاء في المنزل ولا تريد ان تتدخل بين الخطيبين، لكن ادوارد لم يرد سماع شيء من هذا القبيل.

ـ لا تكوني حمقاء يا صوفيا! لسنا عاشقين فتيين. هيّا، تعالي. هناك امورٌ كثيرة علينا تقريرها.

وبينما كانوا يتناولون العشاء، فكّر ادوارد فجأة بسيارة صوفيا وسألها:

ـ هل فكرت بطريقة لاستعادة السيارة؟

ـ كنت افكر بالامر منذ قليل. ووصلت الى قرار بضرورة بيعها في اسبانيا ما دمت لن اكون بحاجة اليها، ما دمت سأسافر الى

نيوزيلندا، سأرسل رسالة الى اصدقائي آل فينغيلد. كما يجب ان اتصل بالمكتبة لأدبر بيع كتب جدي.

السفر الى نيوزيلندا لم يكن امراً حماسياً بالنسبة الى صوفيا. لا شك انه بلد جميل، لكن كيف سيسحرها هذا البلد ما دامت لن تجد فيه البيوت الجميلة العائدة الى القرن الثامن عشر، ولا الكنائس الرومانية، ولا المكتبات القديمة. . . او ما يشابهها! وقالت صوفيا لنفسها بحزن: انا اوروبية بدمي وروحي ولا اريد الهجرة. لكنها كانت تعرف جيداً ان رفضها سيدمّر كل خطط عمتها المستقبلية. لكن، الا يكون هذا التغيّر الجذري الوسيلة الوحيدة كي تنسى حلمها الجميل المضمحل؟

وفي اليوم التالي عصفت الرياح على مضيق المانش. وراحت الامواج تتدفق على الساحل كجبال من الرغوة. وفكّرت صوفيا بالصيادين الذين يطاردون سفنهم الصغيرة ويتصارعون مع الريح والامواج العالية.

ومباشرة بعد فطور الصباح، توجهت عمتها روزا الى طبيب الاسنان. فكتبت صوفيا رسالة الى بيدرو ومارغريت. ولمّا انتهت وضعتها على طاولة في البهو ودخلت المطبخ لتحضير قالب حلوى بالفاكهة لما بعد العشاء. ولما وضعته في الفرن، فتحت علبة المشمش المجفف وراحت تتذوق طعمه. فجأة سمعت جرس الباب يرنّ.

فتحت الباب. والرجل الذي كان منتظراً امامه كان يحدّق في البحر الهائج، فاستدار نحوها، فأطلقت شهقة تعجب مخنوقة.

قال كارلوس:

ـ صباح الخير، يا صوفيا. اعدت لك سيارتك.

وفي تلك الاثناء، ظهرت روزا ستيل. ولما رأت سيارة صوفيا موقوفة في ممرّ المنزل قالت بدهشة:

- لكن، يا صوفيا، هذه سيارتك، اليس كذلك؟

ظلّت صوفيا جامدة لا تتكلم، فأجاب كارلوس:

- نعم، هذه سيارتها... هل انت عمة صوفيا، يا سيدتي؟

- نعم. وانت لا شك احد اصدقائها الاسبانيين. صباح الخير، يا سيد...

شدت على يده ودعته يدخل.

- صوفيا، عزيزتي، اغلقي الباب. الريح قوية. هل بامكاني ان آخذ سترتك يا سيد...

- ادعى كارلوس ولسينغهام.

- آه، انت انكليزي! المعذرة. اعتقدت انك...

قاطعها كارلوس قائلا:

- انا نصف انكليزي. افهم ان صوفيا لم تكلمك عني؟

- لا اتذكر... والدي... جدّ صوفيا... توفي في الاسبوع الماضي و...

- نعم، قرأت الاعلان في الجريدة. انا آسف لهذه الفاجعة. كنت احب ان اتعرف عليه.

- صوفيا، هل ترافقين السيد ولسينغهام الى الصالون، من فضلك؟ سأحضر القهوة. لا تنسي ان تشعلي النار، فيدا صديقك باردتان.

وكالسحر، اطاعت صوفيا ببطء. وما ان اشعلت النار في المدفأة، حتى انتصبت وقالت بصوت مبحوح ومنخفض:

- اين سيارتك؟

- في المزرعة. سيرسلها هيلاريو بالباخرة. تصوّرت انك ستكونين بحاجة ماسة الى سيارتك. ولحسن حظي وجدت مكاناً على متن الباخرة الآتية من بيلباو الى ساوثهامتون وصلت صباح اليوم باكراً، وجئت من هناك لتوي.

- آه، كارلوس... انت من كنت بحاجة اليه اكثر من اي شيء آخر في هذه المرحلة العصيبة التي امرّ بها. كنت تعيسة... لأنني لم اعد اتوقع رؤيتك من جديد...

انحنى امامها ونظر اليها مباشرة في عينيها وسألها:

- هل تحبينني يا صوفيا؟

احمرّت بعنف لكنها لم تشح ببصرها. وقالت ببساطة:

- نعم، طبعاً احبك.

امسك وجهها بيديه الباردتين وراح يعانقها بحنان وحب. ظلت صوفيا لحظة من دون حركة.

ثم مدت ذراعيها وراء عنقه وضمته اليها بكل قواها.

همست روزا ستيل وهي تدخل الى الصالون لتجد ابنة اخيها بين احضان هذا الرجل الغريب:

- آه، المعذرة... لم اكن اعرف...

عاد كارلوس الى وعيه واسرع في تناول الصينية من يد روزا وقال:

- اخشى ان يكون ما سأقوله لك مفاجئة كبيرة... لكننا... سنتزوج...

- بالفعل، هذه مفاجأة غير منتظرة. هل... تعرفان بعضكما من زمان؟

سألها كارلوس وبريق غريب في عينيه:

- منذ متى نعرف بعضنا، يا حبيبتي؟ لو كان ادراكي سليماً لكنا

تزوجنا قبل الآن!

- آه. . . انها حقاً مفاجأة جميلة! . . .

- كان بامكاني ان اكلمك الكثير عن كارلوس، يا عمتي روزا. لكن ماذا كنت سأقوله؟

حتى هذه الساعة، كنت اجهل حقيقة عواطفه. . . تماماً مثل ادوارد وانت.

رنّ جرس الهاتف فأسرعت روزا للرد عليه.

سألت صوفيا كارلوس:

- لماذا لم تكتب لي؟ ولا كلمة واحدة. . .

- بعد الذي حصل عند المزارع العجوز، اي بعد الحادث، خشيت ان تمزقيها من دون قراءتها.

- لكن، يا كارلوس، ما حصل. . . لم يكن يزعجني. لولم تهرب في الحال، لكنت وعيت الامر وفهمته.

- صحيح؟ ذهبت الى مايوركا خائفاً ان اكون قد دمّرت كل حظ لدي تجاهك. ولما عدت الى المزرعة، آملا ان اسوّي الامور، لم اجدك. اخبرتني لويزا عن البرقية وعن قلقك عليّ. كانت اكيدة انك تحبينني قليلا.

صرخت صوفيا قائلة:

- قليلا! انها لا تعرف الجهد الكبير الذي بذلته كي اجعلها تجهل حقيقة حبي لك. كنت بالكاد اجرؤ على النظر اليك، خوفاً من ان تعرف الحقيقة.

- كانت تعرف انني كنت اريد ان اتزوجك. والاّ لما رضيت ان ترسل مربيتها الى العطلة.

- الى العطلة؟ لكن. . .

- انا اخترعت قصة المستشفى. لم اجد حلاً آخر كي اكون بقربك. وكي احاول ان اقنعك انني لست رجلا سيئاً.

- لكن خلال اقامتي في المزرعة، كنت تظهر برودة رهيبة تجاهي. . .

جذبها نحوه وقال:

- اردت ان اجعلك واثقة مني. . . هل تتذكرين ليلة وصولنا الى المزرعة؟

- كدت ان تعانقني في السيارة، لولا وصول الرجال على بغالهم. . .

- وحينئذ خطر ببالك ان ابناء عمي ليسوا سوى حجة بسيطة وانني سآخذك، الله يعرف الى اين؟.

- نعم. . .

- هذا ما فكرت به. وسئمت هذا الحكم الخاطئ. لذلك فضلت ان اتصنع اللامبالاة. لكن لم يكن الامر سهلاً!

وبعد زفرة سعادة، وضعت صوفيا رأسها على كتف كارلوس وقالت:

- انسى كل هذه الامور. انا اشعر بثقة معك الآن.

ضمته بذراعيها وظلا متعانقين الى حين عودة العمة روزا.

وبينما كانوا يحتسون القهوة شرحت صوفيا عن زواج عمتها ومختلف مشاريعهم فسألها:

- ولماذا تبيعين كتب جدك؟

نهض وراح ينظر بتأمل الى الكتب المعروضة داخل المكتبة فاجابت:

- طبعاً، افضّل ان احتفظ بها. لكن المكان والظروف لا يسمحان

بذلك.

نظر اليها بحنان وقال:

ـ كل شيء ممكن، يا حبيبتي. يكفي ان تسأليني. سأضعها مع كتبي الى ان نجد منزل احلامنا.

وبسرية صامتة، انسحبت العمة روزا فاقتربت صوفيا من كارلوس وضمته اليها. وبعد دقائق عديدة، همس قائلاً:

ـ سنتزوج باسرع وقت ممكن، هل تقبلين عرضي؟ لماذا الانتظار؟ يوجد هنا مكتب للزواج اليس كذلك؟ كما عليّ ان اشتري بعض القمصان لأنني جئت بسرعة ونسيت معظم امتعتي.

وبعد جولة في الاسواق، مرّا بالصدفة أمام مكتبة برامفيليد. فاقترح كارلوس على صوفيا الدخول.

دخلا المكتبة ونزلا الى الطابق الاسفل. نظرت صوفيا اليه وهو ينقل نظره بين مختلف الكتب وتساءلت: هل سيتذكر حادثاً قديماً عمره ٤ سنوات؟

قال اخيراً:

ـ لا، لا ارى شيئاً يهمني.

ثم اقترب منها وامسك كتفيها وسألها:

ـ قولي، يا صوفيا، يبدو لي، اننا لم نأتِ الى هنا معاً للمرّة الاولى، اليس كذلك؟

ـ اذن انت تتذكر؟

ـ اعترف لك انني اخذت وقتاً طويلاً كي اتذكر. هذا قديم جداً. . . ويوم ذهبت الى نيرخا للبحث عنك، تذكرت اخيراً هذا المكان وما جرى. وفهمت اموراً كثيرة، كانت ما تزال لغزاً عليّ.

ـ لغز؟

ـ نعم. التناقض الواضح بين عفويتك الواثقة في برشلونة وتصرّفك العدائي فيما بعد. في الواقع، انت تصورت انني ما ازال اتذكر، اليس كذلك؟

ـ طبعاً. ولما ارسلت اليّ سلة القرنفل والقصيدة، اعتقدت ان الامور قد بدأت تنجلي. ذلك لأنني كنت احلم باننا سنلتقي يوماً.

ازاح الرباط عن شعرها وقال:

ـ اتذكّر ان شعرك كان منسدلاً على كتفيك. ورأيت وجهك يحمّر خجلاً، وانزعاجاً. . . كنت رائعة. . .

ـ لكنك نسيتني بعد اسبوع، من دون شك.

ـ ليس تماماً، أراد ان اكون ما ازال حرّاً عندما التقينا في المرّة الثانية.

وبعد أسبوعين سافرا الى مايوركا حيث مكثا في مزرعة بعيلة يملكها اصدقاء لكارلوس. كانت الشمس حارة والجوّ خانقاً داخل سيارة الأجرة. ومن حين وصولهما وقبل ان يرتبا امتعتهما. ارتديا بزة السباحة وذهبا الى الشاطىء القريب.

وهكذا، بعد ساعات من زواجهما، كانت صوفيا ممددة على شاطىء رملي رائع. تتمتع بانتعاش الحمام وحرارة الشمس. ومن حين الى آخر كانت تفتح عينيها لتنظر الى محبسها الذي لم تتعود عليه بعد. لم يكن محبساً عادياً بل خاتماً ذهبياً مصنوعاً على يد نحات فنان.

وقررا تناول العشاء في حانة صغيرة قرب المزرعة. قال كارلوس:

ـ لا شك ان الطعام هناك لذيذ رغم بساطة المكان.

وفي طريقهما الى المزرعة قال كارلوس:

ـ آمل ان يكون هناك بعض الطعام داخل الثلاجة. والاّ سأضطر للذهاب الى سان لويس.

لكن لما وصلا الى المزرعة وجدا بعض الشراب فصرخت صوفيا تقول:

- وجدت زيتوناً... وخبزاً... وكوريتزو...

- آه، يا لهذه الوليمة الفاخرة...

لم يسبق ان تخيّلت رحلة شهر العسل بهذا الهدوء. لا شقق فخمة، ولا اوركسترا فاخرة ولا فساتين طويلة وحلى فاخرة. انما بزة السباحة وكتب...

وتذكرت في الحال، لما رأت كارلوس في برشلونة وسط غفير من المدعوين. فسألها وابتسامة على شفتيه:

- بماذا تفكّرين، يا كنزي؟

- بالحفلة المقيتة عند السيدة هاكنباكر... كنت املّ حتى الموت... ثم رأيتك... شعرت كأنني زهرة تتفتح في الشمس.

- زهرة داخلها بعض الاشواك.

انتفض واقفاً ورأت في عينيه شغفاً يلمع كالبرق. فقال لها:

- غابت الشمس، لندخل الآن؟

- كما تريد.

حملها بين ذراعيه كالريشة وقال:

- اقترح عليك حماماً سريعاً، ثم... قيلولة... قبل ان يحين وقت العشاء.

حملها الى الداخل وبطرف كتفه اغلق الباب وراءهما.